التوحيد وآثاره

التوحيد وآثاره

الإمام الخامنئي (حفظه الله)

ترجمة عباس نور الدين

حقوق الطبع محفوظة ©

الطبعة الأولى

ISBN 978-614-440-030-2

[١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م]

دار المعارف الحكمية
Dar Al maaref Alhikmiah

العنوان: لبنان - بيروت - سان تريز - سنتر يحفوفي - بلوك C - ط٣
تلفاكس: ٠٠٩٦١٥٤٦٢١٩١ - Email: almaaref@shurouk.org

بسم الله الرحمن الرحیم

الفهرس

مقدمة ٩

الجلسة الثامنة: التوحيد (الرؤية الكونيّة الإسلاميّة) ١٣

الجلسة التاسعة: التوحيد في الأيديولوجيّة الإسلاميّة ٣١

الجلسة العاشرة: العبادة والطاعة المنحصرة بالله ٥١

الجلسة الحادية عشرة: روح التوحيد ونفي العبوديّة لغير الله ٦٩

الجلسة الثانية عشرة: التوحيد ونفي الطبقيّة ٨٩

الجلسة الثالثة عشرة: الآثار النفسيّة للتوحيد ١٠٩

مقدمة

تحوز مسألة التوحيد في التعاليم الإسلامية جانبًا كبيرًا من الأهميّة، وهي من أكثر المسائل مركزيّةً في آيات **القرآن الكريم**. والتوحيد مبنيّ على أصالة الفطرة، ودليل العقل والنقل. وقد شغلت المسألة عقول العلماء والمتكلّمين والفلاسفة على مرّ العصور، وقدّم كلّ لذلك طرحه في الإثبات والاستدلال.

ولا يقتصر التوحيد على كونه تصوّرًا ورؤيةً للواقع فحسب، بل هو عقيدة تتضمّن الالتزام والمسؤوليّة، وبها يمتاز المؤمن عن غيره، فمتى ما تحقّقت الوحدة في النفس تحقّقت الدافعيّة لتحقيق الوحدة في المجتمع. وقد اختصّ الإسلام عن سائر الأديان باسم دين التوحيد وافترق عنها بالتشدّد في إنكار الشرك والتنزيه عن كلّ شائبة من شوائبه، وتميّز المسلم عن غيره بكلمة لا إله إلّا الله.

وهو منهج عمليّ، وشريعة للحياة، كما هو عقيدة بأدقّ ما فيها من معنى. ومتى صدق هذا الإيمان واستقام في قلب أيّ إنسان أحبّ وتسامح، وأخلص وتواضع، وضحّى وتعاون، وتنزّه عن رذيلة الحقد والحسد والخيانة والكبرياء والغرور وبذل قصارى جهده لمرضاة الله.

وكلمة التوحيد مبدأ إلهيّ إنسانيّ يهدف إلى نجاة الإنسان في حياته الفانية والباقية، ويحفظ له كرامته واستقلاله في شخصيّته ولا يجعل لأحد عليه سلطانًا إلّا للحقّ وحده؛ فيؤمن بكلّ وجوده أنّ ما عدا الله محتاج إليه تعالى، فقير في نفسه، وهو تعالى مفيض كلّ وجود وكلّ خير.

وهذا الاعتقاد يؤثّر بصورة طبيعيّة في كلّ أرجاء الشخصيّة الإنسانيّة، وفي روح بني الإنسان وأخلاقهم. وعليه، كلّما كان الإيمان قويًّا وصلبًا، فإنّ نفوذ معرفة الله في الوجود الإنسانيّ سيكون أعمق؛ وعليه فإنّ مؤثريّة

التوحيد على الشخصيّة الإنسانيّة مرتبطة بدرجة التوحيد.

ثمّ إنّ مقتضى الاعتقاد بالتوحيد التقرّب إلى الله تعالى وانحصار العبادة والطاعة به سبحانه الذي هو هدف لدراسة تلك المطالب كلّها التي سعى من خلالها الإمام الخامنئي حفظه الله في جلساته القرآنيّة التي نحن بصدد ترجمتها وتحريرها وطباعتها.

وكتاب **التوحيد وآثاره** استكمال للجلسات السبع في كتاب **الإيمان ومستلزماته**[1]. وهو عبارة عن ستّ جلسات قرآنيّة؛ فرّق فيها الإمام حفظه الله بين معنى الرؤية الكونيّة والأيديولوجيّة الإسلاميّة. وقسّم العالم إلى: الله وباقي الموجودات أو الممكنات التي لها مبدأ واحد هو الله. فالتوحيد الذي يشير إليه هو التوحيد المتلازم مع الإيمان الواعي، وهو الروح التي تسري في قالب جميع المقرّرات الإسلاميّة، وأنّ الطاعة والعبوديّة لغير الله تتنافى مع الهدف الذي من أجله خُلق الإنسان ويتنافى مع تكامله ورقيّه وحرّيته.

كما أشار إلى أنّ عقيدة التوحيد تستلزم مجموعة من التكاليف والالتزامات، لا تختصّ بالحياة الفرديّة للبشر فحسب بل الاعتماد الأكبر فيها على الحياة الاجتماعيّة. وإنّ المجتمع التوحيديّ لا يوجد فيه طبقات أو طبقيّة، فجميع الناس يعيشون ويتحرّكون تحت سقف حقوقيّ واحد، ولا ميزة لأحد إلّا بالتقوى، بالإضافة إلى ما تضفيه عقيدة التوحيد على الفرد والمجتمع من آثارٍ مادّيّة ومعنويّة في المجالات كافّة من قضاء على الفقر والبطالة ومن انبعاث على الطمأنينة والاستقامة والشجاعة وغيرها الكثير من الآثار التي لا يتّسع المجال لذكرها جميعًا.

---

(١) الإمام الخامنئي، **الإيمان ومستلزماته** (بيروت: دار المعارف الحكميّة، الطبعة ١، ٢٠١٥م)، وهو الجزء الأوّل لكتاب كلّيّات المطالب في الفكر الإسلاميّ، بناءً عليه، يجد القارىء أنّ تعداد الجلسات في كتاب **التوحيد وآثاره** الذي بين أيدينا يبدأ من الجلسة الثامنة.

هذا في المختصر ما ذُكر في الكتاب الذي بين أيدينا، على أنّه جزءٌ له تتمّة في كلّيّات مطالب الفكر الإسلاميّ من: الإيمان والتوحيد والنبوّة والولاية. لعلّه يصل إلى الفائدة المرجوّة منه على أن تكون الغاية والهدف فيه وفي غيره من الكتب هو القرب من الله تعالى وتحقيق العبوديّة الخالصة له سبحانه.

سكينة أبو حمدان

الجلسة الثامنة: التوحيد
الرؤية الكونيّة الإسلاميّة
الخميس، ٩ شهر رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجريّ شمسيّ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اللَّهُ لا إلهَ إلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ ما فِي السَّماوات وَما فِي الْأَرْض مَنْ ذَا الَّذي يَشْفَعُ عنْدَهُ إلَّا بإذْنه يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْديهمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحيطُونَ بشَيْءٍ منْ علْمه إلَّا بما شَاءَ وَسعَ كُرْسيُّهُ السَّماوات وَالْأَرْضَ ولا يَؤُدُهُ حفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَليُّ الْعَظيمُ﴾[1].

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٥.

إنّ هذا المبحث يدور حول مسألتين:

أوّلًا: استخراج الآيات القرآنيّة حول التوحيد من أجل القيام باستنباط المعنى الدقيق له في **القرآن**.

ثانيًا: معرفة ما يستوجبه التوحيد على مستوى الالتزام والعمل في الحياة.

إنّ الإيمان يجب أن يكون واعيًا مدركًا لكلّ ما يرتبط به من الأفكار والأصول الدينيّة. فلا ينبغي أن يكون أعمى، بل منطلقًا من الفهم والشعور والوعي، بالإضافة إلى ضرورة أن يتلاءم هذا الإيمان مع الالتزام.

والشيء الذي ينبغي أن نكتشفه حول الإيمان هو ذلك الشيء الذي يتعلّق بالمسؤوليّة الملقاة على عاتقنا في حياتنا وفي عملنا، سواء كان عملًا فرديًّا أو اجتماعيًّا، وسواءٌ ارتبط بشخصنا أو بمجتمعنا أو بالبشريّة أو بمستقبل التاريخ.

ووفق هذه المقدّمة، فإنّ البحث عن التوحيد سيتعلّق بالالتزام. والتوحيد الذي نقوم بدراسته هو التوحيد الذي يكون منطلقًا من الوعي ويوصلنا إلى الالتزام والمسؤوليّة الملقاة على عاتقنا. فهل أنّ التوحيد مجرّد فهمٍ عديم المسؤوليّة والالتزام؟ وهل هو عبارة عن معرفة حقيقة خالية من التكليف الذي يُلقى على عاتق الإنسان؟ أم لا؟ بمعنى أنّ التوحيد عبارة عن معرفة واطّلاع يلزمان الإنسان - تبعًا لهما - بمجموعة من التكاليف والوظائف والمسؤوليّات. وعندما نراجع **القرآن الكريم** سوف نجد الإجابة الواضحة على هذا السؤال.

بناءً عليه، إنّ الآيات التي نعالجها في هذا المبحث بشأن التوحيد هي ذات رؤية خاصّة. والآيات اللاحقة بشأن التوحيد سننظر إليها من زاوية أخرى بها. وأنا لا أدّعي أنّني في غضون عدّة جلسات سأتمكّن من بيانٍ جميع أبعاد التوحيد القرآنيّة والإسلاميّة من خلال البحث حول التوحيد والاستمداد من الآيات القرآنيّة. ومن المسلّم أنّ أيّ إنسانٍ يراجع **القرآن**

الكريم برؤية أكثر دقّةً، وبتفحّصٍ أكبر، وبمطالعةٍ أشمل، سيجد نفسه أمام محيطٍ لامتناهٍ في مجال التوحيد.

إنّ الأمرَ الذي كان ينبغي أن نذكّر به هو أنّه من المحتمل أن يبدو بحث التوحيد في الآيات القرآنيّة، وبالأسلوب الذي سنطرحه، ثقيلًا نوعًا ما، ويمكن أن يبدو كبحثٍ دراسيّ أكثر منه بحثًا يُطرح في الخطابة. ولكنّني كنت أفكّر دائمًا في نفسي، وما زلت، حول فائدة المحافل العموميّة ما لم تكن ذات طابعٍ درسيّ؛ وهل أنّ خطبنا هي شيءٌ غير الدرس؟ فما هو المانع من أن تكون المحافل العموميّة، مع هذا العدد الكبير من الحضور، شبيهةً تمامًا بالصفّ الدراسيّ الذي تُطرح فيه الأفكار المعدّة لتناول تلك المسائل ذات الطابع المعضل الذي يحتاج إلى التأمّل والتفكّر؟! لماذا يجب على المتكلّم أن يلزم نفسه ويضطرّ أن يعرض المسائل بصورةٍ مفرحة ومسلّية ومتلازمة مع المزيد من الترفيه، لأنّ الشهر شهر رمضان والحضور صائمين؛ فأيّ فائدة ستحصل عندها من هذه الأيّام؟ فإلى متى ينبغي أن تبقى محافلنا ومجالسنا العامّة غير متوجّهة إلى المزيد من التعمّق الفكريّ والارتقاء للمستوى المطلوب؟ لماذا لا يكون لدينا مثل هذه المجالس؟

بناءً عليه، أيّها الإخوة والأخوات المشاركين في هذا المجلس، لا أعلم إن كان ما سأطرحه وأعرضه سيظهر لكم ثقيلًا أم لا في الأيّام المقبلة! فمن الممكن أن يكون كذلك أو أن يكون عاديًّا جدًّا. ولكن لو كان المطلب ثقيلًا عليكم ويحتاج إلى تفهّم، فاعملوا عليه فكرًا ومطالعةً. عبّئوا جميع قواكم الذهنيّة من أجل أن تفهموا المطلب. احفظوا الكلمات واحتفظوا بها في أذهانكم. وإذا كانت صعبةً، فتباحثوا بشأنها مع زملائكم وأصدقائكم. وإذا لم يكن البحث مألوفًا لأذهانكم، فلا تسعوا إلى طرده مباشرةً لمجرّد أنّه بحثٌ ثقيل. كلّا، اسعوا لأن تجعلوا أذهانكم مستأنسةً بمثل هذه المباحث.

وبالطبع، وكما أشرنا في الكثير من الأبحاث والخطب والدروس السابقة، نحن لا نتوقّع أبدًا من أيّ شخصٍ أن يتقبّل كلّ ما نقوله مئة بالمئة. كلّا، بل

على العكس، نحن نتوقّع من الأصدقاء والإخوة والأخوات، وفي أيّ مستوًى كنتم، أن تضعوا ما يُعرض عليكم كغذاءٍ فكريّ تحت مجهر الإدراك والفهم والتشخيص والاجتهاد، وما لم تكونوا في الأماكن الأخرى هكذا، فكونوا هنا هكذا واجعلوا أنفسكم مصداقًا للآية القرآنيّة الشريفة: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[٢].

على كلّ حال، سنجعل التوحيد محلّ بحثنا من زاويتين. ومن الممكن وأثناء تنظيم المطالب أن تظهر بعض الشعب الأخرى التي ينبغي أن نتعرض لها بالحديث والذكر. أوّلًا من زاوية الرؤية الكونيّة الإسلاميّة. إذ إنّ وجود التوحيد في الرؤية الكونيّة الإسلاميّة هو من المسلّمات؛ فما هو معنى التوحيد في الرؤية الكونيّة الإسلاميّة؟ وما هي دلالته؟ وكيف تشرح آيات القرآن - بما لها من أسلوبٍ لغويٍّ بليغ - هذا التوحيد المطروح في هذه الرؤية؟

أمّا البحث من الزاوية الثانية، فنعبّر عنه بقولنا: التوحيد في أيديولوجيّة الإسلام. وبالطبع، سوف نقدّم توضيحًا مختصرًا لمصطلح الرؤية الكونيّة لمن لا يعرفه، وكذلك لمصطلح الأيديولوجيّة. فالتوحيد هو من أركان الرؤية الكونيّة الإسلاميّة، كما أنّه من أركان الأيديولوجيّة البنّاءة للحياة في الإسلام. وكذلك، فإنّ التوحيد يظهر في كلٍّ من الأنظمة الفرعيّة للإسلام، وأينما شاهدتم حكمًا أو قانونًا أو نظامًا باسم الدين لا يستقيم فيه التوحيد، بل على العكس يضاده أو يفتقد إليه، فاعلموا أنّه ليس من الإسلام؛ لأنّ التوحيد يشبه الروح التي تسري في قالب جميع المقرّرات الإسلاميّة.

إنّه مثل الهواء الرقيق واللطيف الذي يتحرّك في جميع أجزاء هذا البناء والهيكل الذي نسمّيه الإسلام. إنّه مثل الدماء أو الدمّ الطاهر والنقيّ والمتجدّد الذي يسري في جميع عروق وشرايين هذا الجسد الذي نسمّيه الإسلام والدين. وإنّكم لن تجدوا حكمًا جزئيًّا بسيطًا في الإسلام لا يظهر

(٢) سورة **الزمر**، الآيتان ١٧ و١٨.

فيه لون التوحيد وعلائمه. بناءً عليه، إنّ البحث سيكون حول التوحيد في الرؤية الكونيّة الإسلاميّة. فما هو معنى الرؤية الكونيّة الإسلاميّة؟

أنتم عندما تتأمّلون في العالم بعنوان أنّكم بشرٌ وتفكّرون وتدركون العالم والإنسان، تنتزعون مجموعة من التصوّرات والمفاهيم عنها. من الممكن أنّكم لم تكونوا بصدد هذه القضيّة سابقًا، أمّا من يفكّر بهذه الطريقة، فإنّه عندما يتأمّل في العالم وفي الإنسان وفي ارتباط الإنسان بالعالم ويفكّر بتلك الأشياء التي تكون ما وراء الطبيعة، وما وراء الإنسان والعالم، سوف ينتزع سلسلة من التصوّرات والمفاهيم، وهذا ما يُعبّر عنه بالرؤية الكونيّة.

إنّ لكلّ مذهبٍ رؤية خاصّة ونظرة معيّنة وانتزاعٌ خاصّ واستنباطٌ محدّد حول العالم. وهذا التصوّر الخاصّ حول العالم والرؤية المحدّدة بشأن كيفيّة النظر إليه تُسمّى الرؤية الكونيّة. فالرؤية الكونيّة هي من جملة المصطلحات التي راجت في السنوات الأخيرة باللغة الفارسيّة وغدت تُستعمل بصورةٍ ملحوظة. الرؤية الكونيّة لا تعني سعة النظر، التي قد تُستعمل في تعابير العوامّ حيث يُقال إنّ لهذا الإنسان رؤية كونيّة بمعنى أنّه واسع النظر، كلّا، الرؤية الكونيّة لا تعني ذلك.

وباختصار، يمكن تعريف الرؤية الكونيّة على هذا النحو: هي عبارة عن تصوّر الإنسان عن العالم وما يدركه منه، وفهمه للإنسان وللعالم. ويمكنكم أن تضعوا مكان تصوّر الإنسان تصوّر المذهب الفلانيّ أو المسلك أو النهج أو الرؤية الاجتماعيّة الفكريّة حول العالم. فمثل هذا التصوّر يُسمّى بالرؤية الكونيّة. وللإسلام رؤيته الكونيّة وتصوّره عن العالم، وسوف أبيّن بشكلٍ مختصر هذا التصوّر الإسلاميّ بالمقدار الذي يرتبط ببحثنا حول التوحيد.

يعتقد الإسلام أنّ كلّ هذه المجموعة المسمّاة بالعالم، من أعلاها إلى أسفلها؛ من الموجودات الصغيرة جدًّا إلى الكبيرة، من أدنى مستويات الكائنات الحيّة أو غير الحيّة إلى أشرفها وأقدرها وأكثرها عقلًا، أي الإنسان، هي جميعها وكلّ ما في هذا العالم عبارة عن مخلوقات أوجدتها

قدرة عظيمة جدًّا، فهي كلّها تابعة لها، وهي بأسرها يطلق عليها: عبادٌ لها. فما وراء هذا الظاهر الذي أراه أنا وأنتم، وما وراء ما يمكن أن تصل إليه العدسة الحادّة للعلم التجريبيّ، وما وراء كلّ هذه الظواهر المحسوسة والملموسة، يوجد حقيقةٌ هي أعلى وأشرف وأسمى وأعزّ من جميع الحقائق ومن جميع ظواهر هذا العالم؛ وكلّ ما في هذا العالم هو مصنوعٌ ومُعدٌّ بقدرتها، فيطلق على هذه القدرة الأسمى والأعلى، اسم الله.

فالعالم إذن هو عبارة عن حقيقة غير مستقلّة بذاتها ولم توجد نفسها بنفسها، ولم تنبع من ذاتها وداخلها، بل إنّ يدًا مقتدرةً خلقت هذه الظواهر المختلفة. وكلّما تقدّم العلم، اكتشف المزيد من هذه الظواهر. ثمّة يدٌ مقتدرةٌ هي التي أوجدت هذا الاهتزاز الكبير في أعماق الذرّة؛ كما أنّ أعلى وأبعد العوالم المجهولة من المجرّات وما يحيط بها ممّا يزيد بمليارات المرّات عمّا اكتشفناه لحدّ الآن، فكلّ هذه قد أوجدتها اليد المقتدرة. فهذا المصنع له صانعٌ وبانٍ، وهذا الجهاز له موجدٌ، فلم يحدث صدفةً أو يوجد من ذاته. فالإسلام يرى العالم على هذا المنوال.

هذه هي مواد الرؤية الكونيّة الإسلاميّة في مجال التوحيد، والتي نفصّل القول فيها وباختصار. فذاك الإله الذي هو أعلى من العالم ومن العالمين، وتلك اليد المقتدرة التي ترجع إليها جميع موجودات العالم، قد صنعت وأوجدت كلّ هذه الأشياء، هذه هي اليد المقتدرة التي اسمها الله، والتي تتّصف بجميع الصفات الحسنة على نحو الأصالة والذاتيّة؛ فلها العلم والقدرة والحياة والإرادة وكلّ ما ينبع من هذه الصفات، وحياتها لم تنبع من أحد، وعلمها لم يُكتسب من أيّ موجود، وهكذا سائر الصفات.

بيده كلّ هذا العالم. ومَن هم العالمون؟ وما هي ذرّات العالم في مقابله؟ وإذا كانت ذرّات العالم من صنعه وإعداده، فهل هي كمولودٍ انفصل عن أمّه وأضحى مستقلّا!؟ كلّا، القضيّة ليست كذلك. إنّ كلّ هذه الموجودات تحتاج إليه في كلّ لحظةٍ من أجل الوجود والبقاء، وتحتاج إلى قدرته وإرادته،

فالكلّ عبيدٌ له. وهي من صنعه ومن خلقه، وهو قادرٌ على التصّرف فيها جميعًا، وقد خلقها كلّها ضمن نظامٍ خاصّ وأوجدها وفق سننٍ وقوانين منظّمة ودقيقة. وهذه القوانين هي التي يسعى العلم اليوم لاكتشافها.

وبالطبع، إنّ البحث ليس مرتبطًا بهذه الجهة، فهو لا يتعرّض لقضيّة الاستدلال على وجود الله وإثبات الصانع. يوجد في هذا المجال كتبٌ كثيرةٌ اذهبوا واطّلعوا عليها. ولكن لا بأس بذكر هذه الجملة نقلًا عن بعض علماء العلوم التجريبيّة في عصرنا - لا أنقلها عن الفلاسفة - أي العلماء الذين يعملون طيلة الوقت في المختبرات في مجال التقنيّات وفي الصناعة وأمثالها؛ والتي [وردت] في كتابٍ ترجمه مجموعة من الفضلاء الإيرانيّين، وكتبه مجموعة من العلماء غير الإيرانيّين تحت عنوان **إثبات وجود الله**[٢] - وهو كتابٌ جيّدٌ ولا بأس بأن تراجعوه - حيث يقول هؤلاء العلماء: إنّه مع تقدّم العلم وعند التوغّل في كنه المخلوقات والموجودات وكشف القوانين المنظّمة، نفهم أنّ للعالم موجد. فمن خلال ما نراه من نظامٍ وانتظامٍ وانضباطٍ في عمل كلّ أجزاء هذا العالم نفهم أنّ للعالم خالقًا وموجدًا. حسنٌ، فإنّ كلّ موجودات العالم عبيدٌ له وقد أوجدها وهي تحت تصرّفه وفي قبضة قدرته، والإنسان مثل بقيّة الموجودات.

إنّ التوحيد في الرؤية الكونيّة الإسلاميّة هو عبارة عن هذا الأمر؛ فالتوحيد يعني أنّ للعالم خالقًا وصانعًا؛ وبعبارةٍ أخرى، إنّ للعالم روحًا لطيفة ومنزّهة. للعالم موجدٌ، وكلّ أجزاء هذا العالم هي عبادٌ وموجودات هم تحت تصرّف هذا الإله وهذا الموجد؛ هذا هو التوحيد في الرؤية الكونيّة الإسلاميّة. أي عندما ينظر أيّ مسلم من زاوية الإسلام إلى هذا العالم، فإنّه لا يراه كموجودٍ مستقلّ، بل [يراه] عبارة عن موجودٍ يرتبط بقدرةٍ أعلى. فما هو تأثير مثل هذا الاعتقاد؟ وما هي فائدته؟ إنّ له آثارًا عجيبةً

(٢) **إثبات وجود الله**، تأليف جون كلور، هو كتابٌ يضمّ أربع مقالات من العلماء المعاصرين في إثبات وجود الله، وقد تُرجم هذا الكتاب إلى الفارسيّة من قبل أحمد آرام وعلي أكبر مجتهدي وسيّد مهدي أمين.

ومدهشةً؛ وسوف تتّضح هذه الآثار على مستوى بناء الحياة في الأبحاث اللاحقة التي ستدور حول التوحيد؛ وعندها سيُعلم ويتّضح ما نريده من هذا التصوّر وهذه الرؤية الكونيّة الخاصّة وهذا الاستنباط والفهم لهذا العالم وهذا التفسير للعالم والعالمين.

فلنرجع إلى آيات **القرآن الكريم**، ولنرَ كيف أنّ هذا المطلب بذاته قد ذُكر في آياته بوحي من ربّ العالم.

إنّ الآيات التيً سوف نتحدّث عنها قد تناولناها من موضعين من **القرآن**: الأوّل من سورة **البقرة** والآية المعروفة بآية الكرسي، والثاني من سورة **مريم**.

بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿اللَّهُ لا إِلهَ إِلّا هُوَ﴾ الله هو الاسم الذي لا يمكن أن نجد له معادلًا بصورة التبيين والشَرح، فما هو الله؟ ومَن هو؟ إنّه الموجود الذي ﴿لا إِلهَ إِلّا هُوَ﴾، فلا معبود سواه، اجعلوا لفظ الإله بمعنى المعبود. الإله هو ذلَك الموجود الذي يخضع له الإنسان مقدِّسًا ومعظِّمًا ومكرِّمًا، ويجعل زمام أمره بيده وأصل حياته عنده، وله اليد الطولى ومطلق العنان في حياته. هذا ما يُعبّر عنه بالاصطلاح القرآنيّ بالإله.

فأولئك الذين يجعلون أهواء النفس أساس تحرّكاتهم في الحياة، إلههم هو هوى أنفسهم؛ وأولئك الذين يفسحون المجال للإنسان المتمرّد المتجاوز للتدخّل في شؤون حياتهم يكون إلههم هو ذاك الشيطان. أولئك الذين يسلّمون للتقاليد والاعتقادات الفارغة دون قيد أو شرط، فإنّ إلههم يكون تلك العادات والتقاليد والعقائد الجُزاف. فكلّ ما كان مبسوط اليد في وجود الإنسان وفي حياته ولا قيد له ولا شرط، ويحكم ويتحكّم به يُعدّ إلهًا لهذا الإنسان. هنا يقول: ﴿لا إِلهَ إِلّا هُوَ﴾ فلا معبود سواه، فماذا يعني ذلك؟ هل يعني أنّه غير موجود في الدَنيا؟ لقد كان هناك آلاف الآلهة التي عُبدت في هذه الدنيا، ففي الكعبة نفسها كان هناك أكثر من ٣٦٠ صنمًا معلّقًا أو بمعنى حوالي ٣٦٠ دمية؛ وكم من الدُّمى الحيّة في هذه الدنيا تُصدر

الأوامر والأحكام! فكيف لا يوجد آلهة هنا؟! إنّ قوله: ﴿لا إِلهَ إِلّا هُوَ﴾ ولا معبود سواه، أي الإله الواقعيّ والإله القانونيّ والإله الحقيقَيّ. فكلّ شيءٍ آخر اعتبرتموه إلهًا غير الله - بذاك المعنى الذي ذكرته - واعتبرتموه معبودًا، تكونون قد أخطأتم وخالفتم الحقّ به، لأنّه لا يوجد إلّا الله يليق بالعبادة والألوهيّة.

﴿اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُو﴾، فما هي خصوصيّة «الله»، وهذا الإله الواحد المتفرّد؟ تُذكر هنا مجموعة من الخصائص، منها الحيّ. فالكلّ أموات، وكلّ ما سواه موجودات ميّتة وهو الحيّ؛ وهذا أمرٌ واضحٌ فيما يتعلّق بالكائنات غير العاقلة، وكذلك الأمر بالنسبة لما يُعبّر عنه بذوات الأرواح؛ فذوات الأرواح لم تكن يومًا وسيأتي يومٌ لن تكون. فمن له روحٌ تكون روحه دائمًا في معرض التهديد والفناء. هذا الموجود الحيّ الذي تكون حياته في معرض التهديد عند أدنى حركة، ولو قيد أنملة، يتعرّض للفناء والزوال؛ فأيّ نوع من الحياة هذا؟! ذاك الذي تكون له الحياة الأبديّة والأصيلة والحقيقيّة هو الله، وحياة كلّ الكائنات الحيّة هي عطيّة وهديّة وموهبة منه.

﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ هو الثابت والمستقلّ، هو الذي تكون حياته سرمديّة وخالدةً وأبديّة، هو الذي تكون حياة الأحياء بحياته؛ ولو لم يكن ولم يشأ ولم يرد فإنّه لا يبقى أيّ حياة أو مظهرٍ للحياة في هذا العالم؛ ﴿الْقَيُّومُ﴾.

﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ﴾، فلا نُعاسٌ ولا سُباتٌ يستولي عليه. السِّنة هي النوم الخفيف، فما بالك بالنوم الثقيل؟! وماذا يعني أن يُسلب أحدٌ عن نفسه؟ وهكذا، فإنّه لا يمكن أن يوجد في حياته وفي وجوده أيّة لحظة من الغفلة أو انعدام التوجّه. فكلّ الوجودات الأخرى والمعبودات المختلَقة تغفل عن نفسها وعمّن دونها وعن العالم الذي يكون في قبضتها؛ إنّها تصبح غافلةً تمامًا، فهي دائمًا في غفلة. وهناك حيث يستولي عليها الغفلة أو الجهل، فإنّ علمها واطلاعها يكون كاذبًا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ * جَهَنَّمَ

يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾[٤]، لقد قرأ موسى بن جعفر صلوات الله عليه هذه الآية القرآنيّة على هارون الرشيد. فأين هو هذا الوادي المليء بالشؤم والعدم؟ إنّه جهنّم. لقد دخلوا جهنّم وجرّوا أتباعهم المساكين وأخذوهم معهم إليها، وما أسوأ هذا المستقرّ! يقول موسى بن جعفر صلوات الله عليه لهارون إنّك من هؤلاء[٥]. حسنٌ، فهل يمكن لهارون أن يجرّ نفسه وقومه إلى جهنّم لو لم يكن غافلاً؟! فالغفلة تستولي على كلّ هذه المعبودات الأخرى.

أمّا الذي لا تأخذه الغفلة، فهو الحاكم الواقعيّ لهذا العالم، أي الله، ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَه﴾. فأنتم لا يمكن أن يأتي ببالكم أنّ «السِّنة» أي النوم الخفيف، أو النوم العادي، أو حتّى النوم الثقيل، يمكن أن تعرض على الله، فما هي ضرورة ذكرها هنا؟ ولماذا سنراها في الأبحاث اللاحقة؟ لأنّ كلّ إشارة في التوحيد وكلّ نقطةٍ ومسألةٍ فيه تشير إلى نفي ألوهيّة غير الله، وتشير إلى نقائص غير الله. فكلّ ما يثبت لله يتمّ نفيه عن مدّعي الألوهيّة. وكلّ ما يُقال في التوحيد، وتلك الأشياء التي ينبغي أن تنعكس في الحياة العمليّة للموحّدين ولعبيد الله، وجميع الخصائص والدقائق الموجودة في التوحيد، ينبغي أن يكون لها نماذج في حياة الموحّدين؛ وهو الأمر الذي سيظهر في الأبحاث والتلاوات اللاحقة. بناءً عليه، إنّ ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ إشارة إلى كلّ أشكال الغفلة والنوم والذهول عن الذات، للآلهة والأرباب المختلَقة.

﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾، فكلّ ما في السماوات وما في الأرض له وهي ملكه وعبيد له. ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِه﴾، فالشفاعة، بمعنى الوساطة، لا تتحقّق إلّا بإذنه ولا يوجد أيّة قدرة أخرى، حتّى بمستوى قدرة شفيعٍ واحد، يمكنها أن تستعرض نفسها مقابل

(٤) سورة **إبراهيم**، الآيتان ٢٨ و ٢٩.

(٥) **تفسيرنور الثقلين**، ذيل الآية ٢٨ من سورة **إبراهيم**.

الله. فلو شفع أحدٌ للغير فذلك بإذنٍ من الله. وإذا شفع الأنبياء لغيرهم، وكذلك الأولياء والأئمّة والصلحاء والمؤمنون والشهداء، إذا شفعوا عند الله فذلك لا يكون إلّا بإذن الله. بناءً عليه، فإنّها جميعًا ليست قوى مقابلة للقدرة الإلهيّة، وليست دكاكين مقابل الله، إنّها ليست ما يشبه جهازًا مستقلًّا يقف مقابل الجهاز الإلهيّ. كلّا، بل الكلّ عبيدٌ لله؛ غاية الأمر أنّهم عبيدٌ أحاط بهم لطف الله ومحبّته.

﴿مَنْ ذَا الَّذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِه﴾، فالشفاعة إذن لا تكون إلّا بإذنه وإجازته. ﴿يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ﴾ فله الإحاطة بما هو أمام هؤلاء وما خلفهم، أي يحيط بكلّ مجريات حياتهم، كبشر أو كموجودات. ﴿وَلا يُحيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِه إِلاَّ بِما شاءَ﴾، فلا يصلون إلى علم الله إلّا بما يشاء الله.

فانظروا كيف يقسّم كلّ العالم إلى صفّين: الصفّ الأوّل هو صفّ الله، والصفّ الآخر هو صفّ الموجودات. وهذا الصفّ الآخر يشمل جميع ذرّات العالم على حدٍّ سواء كعبيدٍ لله. وما أريد قوله هو أنّه لا يوجد أيّ امتياز بين أيّ موجودين في هذا العالم بلحاظ العبوديّة لله؛ فالجميع متساوون بلحاظ العبوديّة من جهة شموليّة القدرة والإحاطة الإلهيّة – فالكلّ في قبضته – بما في ذلك أعظم موجودات العالم وأعزّها وأكثرها أهميّةً في التاريخ، أي الوجود المقدّس للنبيّ الأكرم (ص)؛ فهو بلحاظ العبوديّة والخضوع، يشبه كلّ ذرّات العالم الأخرى، وله الخضوع نفسه الذي يكون لكلّ موجودات العالم لله. فأن يكون النبيّ أو أيّ صاحب مقام، أو أيّ إنسان عظيم، عظيمًا ومصطفًى ومحبوبًا عند الله وعزيزًا عنده، لا يعني أن يكون له شيءٌ من القدرة مقابل الله؛ كلّا. إنّ جميع العباد هم لله وبيده وفي قبضته ومسلّمون له، وإن كان لهم عظمة فهي بسبب هذا التّسليم والخضوع. أنتم تقولون في الصلاة: «أشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله»، فتقدّمون العبوديّة لله وتشهدون أنّ محمّدًا عبد الله ثمّ تشهدون بأنّه رسول الله. فتذكرونه كعبدٍ أوّلًا.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ﴾، إنّ محلّ القدرة يشمل السماوات والأرض. ﴿وَلا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما﴾، فليس صعبًا عليه أن يحفظ السماوات والأرض وهو العليّ العظيم. فماذا تفهمون من هذه الآيات؟ ومن مجموعها؟ فبالإضافة إلى هذه الدقائق الموجودة في هذه الآية، واللطائف الدقيقة في هذه الجملة - حيث إنّ جزءًا منها يمكن أن تفهموه أو أفهمه أنا، ويبقى عشرات أو مئات الملاحظات والنكات الأخرى التي لا يفهمها إلّا عباد الله المصطفَون - فمن ﴿اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ يفهم الإمام السجّاد لطائف ودقائق لا يمكنني أنا وأنت أن نفهمها. فماذا تفهمون غير هذه الدقائق وهذه النكات وغير هذه المسائل الاجتماعيّة والاعتقاديّة المذكورة هنا؟ أي ماذا تفهمون من مجموع القضيّة؟ إنّكم تفهمون من هذا المجموع الرؤية الإسلاميّة التي تتعلّق بالله بصورةٍ جيّدة، والتي تقول إنّه يوجد مركزٌ للقدرة والعلم والحياة في كلّ منطقة الوجود باسم الله؛ وفي الطرف المقابل، فإنّ جميع الظواهر تخضع لهذه القدرة العظيمة والجليلة في حالةٍ من المسكنة والعبوديّة؛ ولا يوجد فرقٌ بين ظواهر العالم من جهة العبوديّة في مقابل مركز القدرة ذلك، سواءٌ من الذرّة الصغيرة إلى المجرّة العظيمة، سواء كان الإنسان مؤمنًا أو كافرًا، أو كان موجودًا عديم القيمة أو إنسانًا عظيم الشأن؛ فإنّ الكلّ يسلّمون لذلك الموجود وهم عبيدٌ له، وأيّ تعبير آخر تريدون أن تستعملوه.

بالتأكيد، إنّ لفهم هذا الموضوع آثارًا في معرفة الأيديولوجيّة الإسلاميّة، وفي معرفة الأطروحات العمليّة للإسلام فيما يتعلّق بالمجتمع. على سبيل النموذج مثلًا، يمكن أن أشير الآن إلى شيء يمكن أن يوقد شرارةً في ذهنكم، فأنا لا أريد أن أقوم بتصنّع الفلسفة ونسجها. فبعدما علمنا أنّ كلّ البشر في الجملة هم على حدّ سواء في مقابل هذه القدرة وهذا المركز، فلا

معنى بعدها أن يُنحت تمثالٌ لإمبراطور الروم أو الرين[٦] مثلًا يصوّره في منتهى الغرور والتكبّر وتحت قدميه يوجد عبدٌ أو غلامٌ؛ فإنّنا نقول لماذا؟ ولأيّة مناسبة؟ وهل أنّ هذا الامبراطور العظيم هو من غير صفّ عباد الله؟! وهل وجد صفٌّ آخر؟! وهل أنّ هذا الإنسان، الذي سقط عند قدميّ الامبراطور وهو يسجد له ويخضع في مقابله ويخشع، هو من غير صفّ العباد؟! وهل وجد صنف أقلّ من ذلك وأدنى؟ فهل أنّ أحدهما خارجٌ عن هذا الصفّ؟ فلماذا هذا الوضع؟

انظروا، لو لم تكن هذه الرؤية الكونيّة، وهذا التصوّر وهذا الفهم للعالم، لكان بإمكان أباطرة العالم وزعماء التاريخ والملوك الكبار، وأصحاب المال وما يُعبّر عنهم بالإقطاعيّين الكبار، الذين كانوا عبر التاريخ وكان تحتهم وتحت إمرتهم آلاف بل ملايين العبيد والأسرى لقدرتهم والمطيعين لأوامرهم، لكان باستطاعتهم أن يقولوا: يا فلان إنّني مختلفٌ ومتمايزٌ وإنّني غير أولئك، ويجب أن يخضعوا لي ويكونوا تحت قدميّ، وينبغي لي أن أدوس عليهم، فأنا خُلقت لكي آمر وهو خُلق لأجل أن يطيع، وأنا خُلقت لأجل أن أعيش وهو قد خُلق لأجل أن يكون سيّء الحظّ، وإنّني عبدٌ لإله قدرته أعظم من قدرة إله ذاك العبد الآخر، مثلما كان يقول بنو إسرائيل. لقد كان بنو إسرائيل يقولون إنّ إلهنا «يهوا»[٧] وهو يتلطّف ببني إسرائيل أكثر من غيرهم. وكان عبّاد الأصنام المشركون في الهند يقولون: إنّ مجتمعنا ينقسم إلى أربع طبقات ولكلّ طبقةٍ إلهٌ خاصٌّ وإنّ كلّ طبقة تُخلق من جهةٍ خاصّة.

أمّا الرؤية الإسلاميّة التوحيديّة الخالصة، فتقول: إنّ كلّ الممكنات والموجودات تنبع من مكانٍ واحدٍ ومن مبدإٍ واحدٍ ومن قدرةٍ واحدة، خلقتها وأوجدتها وصنعتها؛ فالكلّ عبيدٌ أمامها، والكلّ أسرى قدرتها، والكلّ ينبغي

(٦) من كبار أباطرة الرّوم الذين عذّبوا المسيحيّين كثيرًا، وقد أُسر هذا الامبراطور في آخر عمره في حربه ضدّ الساسانيّين، وقد اعتبر المسيحيّون هذا الاسر عقوبةً إلهيّة في حقّه لأنّه كان يعذّب المسيحيّين.

(٧) اسمٌ من أسماء الله عند اليهود وقد ذُكر هذا الاسم في التوراة حيث كان يدلّ على سرمديّة إله اليهود.

أن يطيعوها، فلا يحقّ لأحد أن يضع رأسه محلّ قدم شخص آخر، كما أنّه لا يحقّ لأحد أن يضع قدمه محلّ رأس شخص آخر. فمثلما أنّه لا يحقّ لك أن تضع قدمك على رأس الآخرين، لا يحقّ لك أن تضع رأسك تحت قدم غيرك، فلماذا ذلك؟ لأنّ هذا مخالفٌ للحقّ والحقيقة من الناحية العمليّة في كلا الحالين. فذاك الذي يمتطي الحصان ويحيط به مجموعة من العبيد الذين يسوقون فرسه، في الواقع لا يختلف عنهم من ناحية العبوديّة.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ﴾، ﴿مَنْ ذَا الَّذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِه﴾، فمَن هو الأقرب إليه؟ ومَن هو الذي لديه قدرة في مقابله؟ ومَن هو الذي يمكنه أن يمنّ في مقابله؟ أجل، ﴿إِلَّا بِإِذْنِه﴾، فهناك مَن يمكنه أن يشفع ولكن بإذنه هو، وهو لا يمكن أن يأذنَ للمتجبّرين في الشفاعة بل يأذن للأئمّة، ولا يمكن أن يأذن للمفسدين بالقرب ويمنحهم إجازة الشفاعة. إنّهم الأنبياء والأولياء والصالحون الشهداء، والمتواضعون من أهل المقامات العليا، والعبّاد الذين مرّت عليهم الدنيا بكلّ مرارة وألم ولكن بقيت أرواحهم قويّة وساروا على طريق تحمّل المسؤوليّة والتّكليف، وحمّلوا أنفسهم على الطّاعة وتحمّل المصاعب من أجل أن يقتربوا خطوةً أخرى نحو أداء التكليف؛ هؤلاء يمكنهم أن يشفعوا عند الله. وإنّ السبب الذي جعلهم قادرين على الشفاعة هو أنّهم أكثر عبوديّةً لله لأنّهم جعلوا أنفسهم تحت قدرة الله أكثر من غيرهم. فلا يوجد من يعبد الله أكثر من النبيّ في زمانه، ولا يوجد مثل أمير المؤمنين في زمان أمير المؤمنين من ناحية العبوديّة لله، وكذلك الأمر في زمن الإمام السجّاد. فكون النبيّ أفضل الناس، وكون عليٍّ أفضل الناس، وكون الإمام السجّاد أفضل الناس، لا لأجل أنّه كذلك من ناحية البلد أو الانتماء - مثلما يُقال إنّ هذا من شوشتر وذاك من دزفول[٨] - بل لأنهم كانوا أكثر عبوديّةً لله فأضحت مقاماتهم أعلى وأعزّ. ويُستفاد هذا المعنى العامّ من هذه الآية - أي آية الكرسي - وهو أنّ ربّ

(٨) شوشتري ديزفولي: هو مثالٌ في موضوع التفاخر والتعصّب القوميّ.

العالم هو تلك القدرة المطلقة التي تكون في مقابلها جميع الكائنات وكلّ العوالم في حالة العبوديّة والطّاعة التّسليم، وكلّ من أراد أن يقترب منه أكثر يجب أن يكون أكثر عبوديّةً له؛ هذه آية.

الآية الأخرى في سورة **مريم**، وهي الآية ٨٨ إلى ما بعدها: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَدًا﴾. لقد نطق الكفّار بهذا الكلام بألفاظ وصورٍ مختلفة. فالمسيحيّون عبّروا عن ذلك بنحوٍ، واليهود بنحوٍ آخر، والمشركون في قريش وفي الجزيرة العربيّة بنحوٍ ثالث، وهكذا كان حال المشركين في الأماكن المختلفة من العالم. فبعضُ الأشخاص يقول إنّ لله ابنة، وآخر يقول إنّ له ابن، وبعض الناس يقول إنّ لله البنين والبنات، وبعضهم يقولون إنّ له ابنًا واحدًا، وبعضٌ قال إنّ عدد أبنائه غير متناهٍ بل هم عائلته. وعلى كلّ حال، قالوا: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَدًا﴾، فمن أيّة جهةٍ نسبوا الابن لله؟ دقّقوا في هذه الملاحظة جيّدًا، أن يكون لله ابنًا، الذي هو مورد ادّعاء بعض المشركين أو المسيحيّين أو اليهود، إنّما هو بهذا المعنى: أنّه من بين مخلوقات العالم، هناك شخصٌ لا تكون نسبته إلى الله نسبة العبوديّة، بل هي نسبة البنوّة. فهو عندهم سيّدٌ وليس عبدًا، حتّى لو لم يكن سيّدًا بذاته.

لقد كان اليهود يقولون إنّ عزير ابن الله؛ ونسبوه إلى البنوّة وأرادوا بذلك أن يقولوا لو كانت جميع موجودات العالم عبادٌ وعبيدٌ لله، فعُزيرٌ خارجٌ عن هذه المقولة، فهو ليس عبدًا لله، بل هو ابن الله وقرّة عينه. لقد قال المسيحيّون مثل هذا [الكلام] بشأن المسيح؛ وذكر الكفّار مثله بشأن اللات ومناة وعزّى[٩] فجعلوها بنات الله؛ وكان وثنيّو اليونان والروم ينسبون الكثير من الأبناء والمواليد إلى الله، فالكلّ كان يحمل هذه النظرة. ففي الحقيقة، لقد قام هؤلاء بجعل هذين الصفّين اللذين نظرنا إليهما: الصفّ الأوّل الذي هو الله، والصفّ الآخر الذي هو جميع العبيد والكائنات التي تخضع كلّها لله، لقد قاموا بجعلهما ثلاثة صفوف بدلًا من اثنين. فقد

(٩) ذُكرت أسماء هذه الأصنام في الآيات ١٩ و٢٠ من سورة **النجم** المباركة.

كانوا يقولون: اللّه، العبيد، والمصطفَون؛ الابن، والمولود، وشيء من هذا القبيل. الآيات في سورة **مريم** تنفي هذا الأمر، تأمّلوا جيّدًا وتفكّروا فيها إلى آخرها.

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ فإنّ كلّ ما ذكرتموه بشأن اتّخاذ الرحمن للابن هو في الواقع شديدٌ جَدًّا وثقيل. انظروا كيف هو التعبير الوارد في كلام اللّه. هو كلامٌ شديدٌ وثقيلٌ وعقيدةٌ خطرةٌ جدًّا، ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾. حقًّا، إنّ كلامكم كبير ﴿ تَكَادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا ﴾، فالأمر قريبٌ من أن تتفكّك السماوات وتنشقّ الأرض وتتصدّع وتنهدّ الجبال وتزول بسبب هذا الكلام ﴿ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَدًا ﴾.

فمن الواضح أنّ القضيّة مهمّة جدًّا، لأنّ اللّه تعالى ليس ممّن يمكن أن يُنسب إليه مثل هذا الكلام الفاحش والسيّء. فربّ العالمين لا يتعامل وفق الانفعالات الشعوريّة؛ فما يقدّمه للناس كعقيدة سيكون له دخالة في إنجاز الأهداف الإلهيّة وتحقيقها؛ وما ينفيه كعقيدة فاسدة فذلك لأنّه يؤثّر في إفساد المجتمع فيما لو اعتقد المجتمع به. فنفي العقيدة الفاسدة يعني إزالة شريان الفساد من المجتمع البشريّ. الاعتقاد بأنّ للّه ولدًا وأمثال ذلك، هو اعتقادٌ بوجود الواسطة والفاصل بين اللّه والبشر، ولمثل هذا الاعتقاد مفاسدٌ في المجتمع تتّضح بالتدريج ضمن أبحاث التوحيد. إنّ هذا في الحقيقة حجّة على أولئك الذين يريدون أن يصبحوا عبيدًا لغير اللّه.

﴿ وَما يَنْبَغي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ فالكلّ إذن في قبضته وتحت حيطته ولا يصحّ أن يُنسب للّه المولود، لأنّ كلّ من في السّماوات والأرض عبادٌ له. وهذه آية أخرى من سورة **مريم**.

حسنٌ. باختصار، إنّ البحث الذي قدّمناه هو في النتيجة مرتبط بموضوع التوحيد في الرؤية الكونيّة الإسلاميّة. لقد قمنا بدراسة التوحيد

من حيث المعنى والتعريف وتحت عنوان أنّه أحد العناصر الأساسيّة للرؤية الكونيّة. وسنصل إن شاء الله إلى دراسة التوحيد كأحد العناصر الأساسيّة للأيديولوجيّة الإسلاميّة. انظروا، إنّ الرؤية والأيديولوجيّة تختلفان فيما بينهما؛ فهذه مقدّمةٌ لتلك، وهذه أرضيّةٌ لتلك. هذا هو التصوّر الإسلاميّ، وهو يرى العالم والدنيا بهذا النحو. حسنٌ، فأيّ إلهام تقدّمه لنا هذه الرؤية؟ وما هو خطّ السير وما هي الأطروحة والخارطة التي تقدّمها للحياة؟ وما هو دور التوحيد وفعاليّته في هذا المجال؟ سيكون البحث حول التوحيد في الأيديولوجيّة الإسلاميّة.

الجلسة التاسعة: التوحيد في الأيديولوجيّة الإسلاميّة
الجمعة، ١٠ رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجريّ شمسيّ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾[١٠].

(١٠) سورة **البقرة**، الآية ١٦٥.

يقول الإنسان الإلهيّ: إنّ ثمّة وراء ما نراه حقيقة هي أعظم من كلّ ما نشاهده؛ ولولا هذه الحقيقة لما تحقّقت كلّ هذه الظواهر ووُجدت. أمّا الإنسان المادّيّ فيقول: كلّا، إنّنا لا يمكن أن نعتقد أو أن نتمسّك بأيّ شيءٍ لا نراه بأعيننا؛ كأيّ أثر أو خبر عن الموجود الذي تتحدّثون عنه. فلتبقَ دعوات المادّيّين والإلهيّين، ولنتركها للكتب والأبحاث المختصّة بهذا الجانب.

عقيدتنا هي أنّ المادّيّين في عصرنا هذا - ولا علاقة لنا بديمقراطيّي التاريخ، كديمقريطس[11]، أو فلان العالم المادّيّ الملحد الآخر الذي عاش قبل عدّة قرون؛ عشرين أو ثلاثين قرنًا، فقد مات وأضحت عظامه رميمًا - منزعجون فكريًّا وساخطون روحيًّا من المذهب الإلهيّ لذا يدّعون بأنّه لا يوجد إله، ولا حقيقةٌ وراء هذا العالم. يتفوّهون بمثل هذا الكلام لأنّهم يعتقدون بأنّه لا يمكن تحقيق بناء عالم اليوم، وإدارة البشريّة، واستقرار العدل، والقضاء على التمييز، إلّا في ظلّ نهجٍ فكريٍّ مادّيّ أو المادّيّة (ماترياليسم)[12]؛ فيديرون ظهورهم لمذهب الإلهيّين من هذا الباب.

ولو أنّنا دقّقنا النظر بالوضع الفكريّ لأولئك الذين توجّهوا إلى تلك المذاهب في زماننا - قبل ٥٠ سنة أو أكثر إلى يومنا هذا - وطالعنا بشأنهم، لوجدنا أنّ الأمر هو ما ذكرناه. فليس الأمر أنّهم في عنادٍ مع الله أو أنّهم لم يمتلكوا استدلالًا فكريًّا مقنعًا على وجود الله، وبالتالي رفضوا الله أو لم يقبلوا به؛ فالاستدلال على نفي وجود الله لم يكن يومًا موجودًا، لا في السابق ولا في الحاضر. إنّكم لن تجدوا شخصًا واحدًا يقول: إنّ الله غير موجود بدليل كذا حتّى بين جميع المادّيّين في العالم أنفسهم من اليوم الأوّل وإلى يومنا هذا. بل من يتحدّث في هذا المجال يقول: إنّه لم يثبت لي أنّه

(١١) ديمقراط أو ذيمقراطيس (٣٧٠-٢٦٠ قبل الميلاد). فيلسوف يونانيّ شهير. كان يعتقد بأنّ الأشياء تتشكّل من الذرّات التي هي غير قابلة للتجزئة. لم يكن يعتقد بوجود الروح وكان يعدّها مرتبطة بدماغ الإنسان، كان يعتقد أنّ الشّيء الوحيد الموجود في هذا الوجود هو الذرّة والمادّة لهذا يعدّونه من المادّيّين.

(١٢) ماترياليسم Materialism أو المادّيّة هي نحو من الرؤية الكونيّة تنكر كلّ ما هو ما وراء المادّة والمحسوسات، وتعتبر أنّ الوجود مساوقٌ للمادّة.

موجود ولم أفهم، فلذلك لم أقبل الاستدلال على وجوده. ويشير **القرآن** إلى هذه الحقيقة بقوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، وإلّا فإنّهم لا يستطيعون أن ينفوا وجود الله بالدليل؛ كما أنّهم لم يمتلكوا فلسفةً عقليّةً مقبولة بشأن الاتّجاه المادّيّ أيضًا. ففي الواقع، هذا هو حال كلّ ما يرتبط بالنزعة المادّيّة في زماننا.

إنّ السبب الذي يقف وراء التوجّه لما يُعبّر عنه بالمذهب الماديّ هو التصوّر بأنّ هذا المذهب هو الذي يمكنه أن يدير عالمنا بصورة أفضل في هذا الزمان؛ ويتوقّعون أنّه الأقدر للقضاء على الظلم والتمييز وعدم المساواة، وعلى اقتلاع كلّ أسباب الفشل من جذورها. وهم يقولون إنّ الدين لا يمكنه أن يحقّق هذه الأمور. فلماذا يقولون ذلك؟ لأنّهم في الواقع لا يمتلكون معرفةً واضحةً عن الدين، بمفهومه الشائع والرائج، سوى ما يشاهدونه من الناس في الأزقّة والأسواق وبصورة تقليديّة. وباختصار، هم لا علم ولا إدراك لهم بالدين. ولو سُئلوا: ما هو الدين؟ لجاؤوا بأسماء ترتبط بمجموعة من المظاهر ولأطلقوا عليها اسم الدين؛ ولأنّ تلك الأمور مخدّرة، وهي متوائمة ومتآخية مع الظلم والظالم، ولا تستطيع أن تحلّ العقد[١٣] – عقد مشاكل الناس – [فإنّهم يقولون] فلنتركها.

ومن الواضح أنّ الإنسان عندما يواجه مثل هذا المنطق، فإنّ أفضل جواب وأكثره صحّة هو أن يقول: أجل، إذا وجدتم دينًا يهادن الظالم ويعين المستبدّ ولا ينصر المظلوم ولو للحظة، ولا يحلّ عقد المشاكل التي يعاني منها الناس، فإنّه في الواقع لن ينفع الناس لا اليوم ولا في الغدّ، ولو مثقال حبّة خردل. فأنت تستطيع أن تتكلّم نيابةً عنّا وبالوكالة، فلو وجدت مثل هذا الدين وأينما وجدته فارفضه ولا تقبله؛ لأنّ هذا الدين لو كان من عند الله لما كان كذلك. فالدين الذي أنزله الله ليس مزحةً أو جُزافًا بل له خصائص ومشخّصات، وله علامات ثابتة لو طبّقناها كمعيار على أيّ دين

(١٣) بود آيا كه در ميكده ها بگشايند گره از كار فروبستد ما بگشايند (حافظ).

فإنّنا نستطيع أن نقبل به أو نرفضه[١٤].

يقول الله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ﴾ وهي البراهين الواضحة، ﴿وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ﴾ التي تَمثّل العُدّة الفكريّة والوسائل العمليّة؛ تلك الوسائل التي يمكن أن تحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وتقضي بينهم. فلماذا فعلنا ذلك؟ ﴿رُسُلَنا﴾ تعني أكثر من نبيّ. فالأمر ليس منحصرًا بموسى أو بخاتم النبيّين أو بعيسى، بل جميع الأنبياء قد أرسلوا لهذا الهدف وبهذا النهج والمقصد. فما هو ذاك الهدف؟ ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، عندها يعيش الناس على أساس القسط والعدل؛ هذا هو الدين. فَلوَ رأيتم دينًا يتحرّك في الجهة المقابلة لفلسفة الأديان، فاعلموا أنّه ليس دينًا إلهيًّا أو قد تمّ تحريفه وتخريبه. فلو وجدتموه يسير على خلاف الفلسفة والمنهاج الذي مشى عليه الأنبياء الإلهيّون والرسل، فاعلموا أنّه حتمًا ليس وليد الوحي الإلهيّ والأنبياء، هذا أمرٌ واضحٌ جدًّا.

فيا أيّها المادّيّ، يا من تقول: إنّني رأيت الدين عاجزًا عن إدارة المجتمعات البشريّة؛ نسألك: أيّ دينٍ هذا؟ هل هو دين الإسلام؟ الإسلام الأصيل؟ الوحي المحمّديّ؟ منهج الحياة الحكوميّة العلويّة؟ هل وجدت هذه الأمور مخالفةً لإدارة أمور البشر؟ فتعالَ اثبت لنا أين تتنافى معها؟ لقد جاء الإسلام للقضاء على التمييز، وللقضاء على الاختلافات الطبقيّة التي تُعشعش في ظلّ الاختلافات الطبقيّة العالميّة، ولإعادة توزيع الثروات التي قُسمّت بغير حقٍّ، وللقضاء على تلك القسمة الضيزى، ولتأمين الفرص المتكافئة والإمكانات المتساوية بين الناس، ولانتزاع الحكومة من أيدي طواغيت البشر وإيداعها بيد القانون الإلهيّ العادل، وليعزّ الإنسان الذليل الخاضع المستعبَد؛ هذا الإنسان الذي يرتكب الجنايات من أجل كلمةٍ أو جاه أو قطعةٍ معدنيّة. إنّه يريد أن يرتقي بهذا الإنسان المنحطّ والذليل ويعزّه ويحلّيه بالفضائل الأخلاقيّة والإنسانيّة. لقد جاء الإسلام لتأمين كلّ

(١٤) سوف يتمّ الحديث عن الموضوع بالتفصيل في بحث النبوّة من هذه السلسلة القرآنيّة.

ذلك في ظلّ نظامٍ عادلٍ ومتقنٍ.

إنّ تربية النبيّ ليست تربيةً فرديّة، كأن يأخذ بيد كلّ واحدٍ على حِدة ويجرّه إلى زاوية يجلس فيها ويتلو عليه بعض الأوراد حتّى يستقيم ويصبح إنسانًا. كلّا، الأمر ليس كذلك، والقضيّة ليست في الوعظ، فيجلس النبيّ ويعظ الناس؛ فمثل هذا الأسلوب لا يستسيغه الناس كالنظام الاجتماعيّ. لقد قام النبيّ بإرساء وبناء المجتمع الإسلاميّ كالفولاذ المحكم ضمن قالبٍ محدّد في تلك البيئة الجاهليّة لذلك الزمان، ثمّ استقطب الناس إليه ووضعهم في هذا القالب ليتحرّكوا على هذا الخطّ وفي حدود هذا الصراط، فصار بالإمكان أن يُصنع الإنسان وتتحقّق إنسانيّته في هذه المسيرة. فلو قلت إنّ الدين الإسلاميّ، بما هو دينٌ واقعيّ وبهذه الخصوصيّات، ليس منسجمًا مع رقيّ الإنسان وتحقّق العدالة والأمن وتأمين الاحتياجات الإنسانيّة، فإنّنا عندئذٍ لن نقبل بكلامك، لأنّه إجحافٌ وظلمٌ وبعدٌ عن الإنصاف.

فلو أنّ عالمًا نشأ وترعرع في بيئةٍ مسيحيّةٍ مغلَقة، ولم يرَ من المظاهر الدينيّة سوى تلك المظاهر الكاذبة لشفاعة المسيح، والصفح عن الذنوب، وبيع الصكوك المتعلّقة بأراضي الجنّة، ولو أنّه أعطى لنفسه الحقّ بالحديث عن ذلك الدين؛ فلا يحقّ لك أنت، الذي تعيش بعده بمئة أو ثمانين أو خمسين سنة، وعشت في زمنٍ ظهرت فيه علائم الإسلام وأظهر أجمل وأعزّ المظاهر الإنسانيّة في أفقٍ العالم، أن تتكلّم بمثل هذا الكلام.

أمّا لو كنت تتحدّث عن الأديان الجُزافيّة، والأديان الكاذبة، والأديان التي ظاهرها جميل وباطنها سيّء، وعن تلك الأديان التي تجرّ الناس في كلّ مكان إلى الخنوع وقبول الظلم والفرقة وقتل الإنسان، والأديان التي تقول للفقير إنّك إذا لم تكن غنيًّا ولم تكن تملك المال فلا ينبغي لك أن تعمل من أجل المال، والتي تقول للغنيّ في المقابل أن اعطِ مقدارًا من مالك إلى تلك الكنيسة أو المؤسّسة الدينيّة الفلانيّة وسوف تكفّر عن جميع ما ارتكبته

من ظلم على طريق تحصيل هذا المال؛ فلو كان قصدك مثل هذا الدين، فنحن أيضًا نشاطرك القول، ونكون بذلك معًا أتباع **القرآن**: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إِنَّ كَثيرًا منَ الأَحْبار وَالرُّهْبان لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاس بالْباطل وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبيل اللَّه﴾[١٥]، فقوله «يأكلون» يشير إلى أنّهم لم يكتفوا بجمع الأموال بل قاموا بالاستيلاء عليها.

﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبيل اللَّه﴾ إشارة إلى أنّهم يمنعون الناس من سلوك طريق التكامل والرقيّ. فيا ليتهم اكتفوا بأكل أموال الناس، لا بل صدّوهم عن سبيل الله وعن الصراط. ومثل هذا الدين ليس بالدين الحقّ، وكلّ ما يقابله يكون أفضل منه، وذلك لأنّ بعض اللادينيّين أحيانًا لا يكونون معينين للظلمة والظّلم، في حين أنّ مثل ذلك الدين أضحى وسيلةً وعصا وسلاحًا بيد الظالمين.

حسنٌ، كان هذا عرضًا مختصرًا لسلسلة من الكلّيّات في مجال الاعتقاد بالتوحيد على شكل رؤية، بمعنى الإجابة على سؤال: هل إنّ الله موجودٌ أم لا؟ وهل يوجد خبرٌ عن عالم ما وراء هذا العالم المادّيّ؟ وهل يوجد يد قدرة أم لا؟ وفي مجال الإجابة عن هذا السؤال قلت: إنّ الإنسان الإلهيّ يقول كذا، والإنسان المادّيّ يقول كذا، فلنترك المعركة بين الإلهيّين والمادّيّين للكتب[١٦]، وأمّا المقدار الذي يرتبط بنا فقد تحدّثنا عنه بكلمتين.

يوجد نكتةٌ مهمّة جدًّا وهي أنّه يجب على الجميع أن يتعرّفوا على مجموعة من المسائل على نحو المقدّمات، وبصورة الكلّيّات، التي تُعدّ ضروريّةً للجميع في مجال الفكر الإسلاميّ، ويفهموها؛ وإحداها هو هذه القضيّة. وأنا أقول: أيّها السادة، عندما تعرضون التوحيد لا تعرضوه بصورة جواب جافّ وساذج على سؤال علميٍّ وفكريّ، بل اطرحوه بصورة قضيّةٍ تُعدّ معرفتها مسألةً مصيريّة وحياتيّة. والآن سوف أوضّح الأمر.

---

(١٥) سورة **التوبة**، الآية ٣٤.

(١٦) جنگ هفتاد و دو ملت همه را عذر بنه چون ندیدند حقیقت ره افسانه زدند (حافظ).

قد تكونون سائرين أحيانًا على طريق، وبجانبكم رفيقٌ أو صاحبٌ تتباحثون معه أثناء الطريق؛ فأنت تقول: يا فلان، إنّ الأراضي المحيطة بهذه الجادّة تبدو لي قاحلة وغير قابلة للزراعة؛ أمّا هو فيقول: كلّا، يا عزيزي، إنّ هذه الأراضي على العكس من ذلك تمامًا فهي خصبةٌ ومهيّئةٌ لزراعة المحصول الفلانيّ. فأنت تقول وهو يقول، وأنت تأتي بدليل وهو يأتي بدليلٍ مقابل. حسنٌ، فما هي أهميّة هذا البحث؟ أنتما على الطريق وسوف تعبران هذه المنطقة، وسيّارتكما تسير بسرعة ١٢٠، فليس المقرّر أن تجلسا الآن لتفحصا تلك التربة، أو أن تشتريا قطعةٍ من هذه الأراضي وتأتيا لتزرعا فيها الشمندر، وليس المطلوب منكما أن تقدّما تقريرًا بشأن هذه الأراضي، إذن ليس لبحثكما أيّ أثرٍ عليكما. كلّ ما هنالك أنّ هناك جوابًا على سؤال، وفي مقابله يوجد جوابٌ فقط، ولا شيءٍ آخر. فلو أنّك قلت أو أثبتّ أنّ هذه الأراضي غير قابلة للزراعة، وأثبت هو الأمر المعاكس أي أنّها قابلةٌ لزراعة الشمندر بصورةٍ جيّدة، فإنّ كلّ ما تقولانه وتثبتانه لن يؤدّي إلى أيّ تغيير في مسيركما وعملكما وحركتكما الحاليّة؛ ليست القضيّة بحيث إنّه إذا أثبتَ أحدكما صحّة رأيه فينبغي أن تبنيا عليه وترجعا. كلّا، فليس ما يهمّكما مثل هذا الأمر، فسواءٌ أثبتت خصوبة هذه الأراضي أم لم تثبت، وسواء قمتما بأداء ركعتين من الصلاة على هذه الأرض الخصبة أم لا، فلا يوجد لكلامكما أيّ أثر. ولو أنّك تفوّقت أنت وأثبتّ كلامك أو غلبك هو وأثبت كلامه، فإنّه لن يكون لذلك أيّ تأثيرٍ على حركتكما في هذا السفر الذي تقومان به، ولا على مستقبلكا وزمالتكما، فهذا نوعٌ من الأبحاث يكون عبارة عن مجرّد أسئلة وأجوبة.

ولكن، قد يحدث أحيانًا أن يكون كلٌّ منكما في السيّارة، وتكون السيّارة سائرة بتلك السرعة على ذلك الطريق، وفجأة يقول زميلك: يبدو لي أنّ هذه الطريق التي نسلكها سوف تأخذ بنا إلى الشمال، في حين أنّ هدفكما هو الوصول إلى الجنوب؛ فتقول أنت: كلّا يا فلان، إنّ هذه الطريق توصلنا

إلى الجنوب. فتختلفان وتتعارضان ويبدأ البحث بينكما. فلو أثبت زميلك كلامه، يجب عليكما أن تعودا أدراجكما بهذه السيّارة وأن لا تواصلا السير، ولو أثبتّ أنت كلامك يجب عليكما أن تستمرّا، لا بل ينبغي أن تسرعا أكثر وتتقدّما. فأوّل أثر لمثل هذا الاختلاف والتعارض بينكما سيكون بأن يضغط السائق مباشرةً على المكابح ليعرف إذا ما كان عليه أن يكمل السير أم لا، وهل أنّه سيصل إلى المقصد أم لا. إنّ الإجابة على هذا النوع من الأسئلة والأجوبة والأبحاث والنتيجة الحاصلة منه تكون مصيريّة. إنّ البحث في التوحيد هو على هذه الشاكلة.

إنّ النحو الذي يعرض به الناس العاديّون أو العاطلون في هذا المجتمع والأفراد غير المسؤولين وغير الملتزمين التوحيد يختلف عن ذاك النحو الذي يعرضه الإنسان الملتزم. فالإنسان غير الملتزم وغير المسؤول يعرض التوحيد على نحو هل أنّ الله موجودٌ أم لا؛ حسنٌ، إذا كان موجودًا فماذا نفعل؟ وإذا لم يكن [موجودًا] فما العمل؟ وما هو تأثيره على وضع الحياة؟ وما هو التغيير والتبديل الذي يوجده في النظام الاجتماعيّ؟ وإذا كان الله موجودًا فكيف سيكون حال النظام الرأسماليّ الفلانيّ لتلك القوّة العظمى؟ أو تلك القوّة الكبرى؟ ولو كان رئيس الجمهوريّة الذي يدير تلك الدولة معتقدًا بالله، كيف يتصرّف؟ وكيف يعمل؟ وإذا لم يكن معتقدًا بالله، على أيّ نحو يكون عمله؟ فهل ينتفي الفارق؟

إنّ معرفة الله وعبادته التي لا يكون لها أيّ تأثير في قبول أو تمييز أيّ طرف أو في تغيير مصير الكارتيلات[١٧] والشركات الائتمانيّة[١٨] والرأسماليّة، إنّ مثل هذه العبادة وهذا الاعتقاد بالتوحيد، يشبه ذاك الاعتقاد بكون تلك الأرض التي نمرّ بها خصبةً، فلا فائدة لهما ولا أثر.

---

(١٧) الكارتيلات هي تلك الشركات التي تنشط في مجالٍ محدّد وتقوم بتقسيم السوق فيما بينها وتحتكر حجم الإنتاج وقيمة الأسعار وحركة السوق.

(١٨) الشركات الائتمانيّة عبارة عن اتّحاد لمجموعة من الشركات التي تنتج بضائع مشابهة وفي هذه الشّكة الائتمانيّة تكون حصص كلّ الأعضاء المشاركة منفصلة ومشخّصة لكنّ إمكانات الجميع تكون في خدمة الشّركة الائتمانيّة.

فما فائدة أن يكون الزعيم السياسيّ الفلانيّ لتلك الدولة معتقدًا بالله، في حين تكون عبادة الله بالنسبة له مجرّد جواب على سؤال فكريٍّ جافّ لا أكثر؟! إنّ عبادة الله وتوحيده تكون مؤثّرةً ومفيدةً وضروريّةً ومصيريّةً بالنسبة لزعيم سياسيّ أو شخص عاديّ أو مجتمع أو شعب أو جماعة أو حتّى مجموعة، بما يخصّ آثار هذا التوحيد، وبالنسبة لما يترتّب عليه، وبالنسبة إلى النظام الذي يقترحه التوحيد، وبالنسبة لشكل ونمط الحياة وفق التوحيد، وبالنسبة للأشياء التي تترتّب على طرحه وفهمه وإدراكه. إنّ هذه قضيّةٌ مهمّةٌ جدًّا بنظرنا.

نحن نتصوّر التوحيد كأمرٍ ينبغي أن يكون واضحًا ومسلّمًا في أذهاننا، وعندما نصل إلى الحياة لا يبقى لهذا التوحيد من أثرٍ فيها! ولو كان له من أثر، فإنّه يكون في إطار الحياة الشخصيّة، لا على نطاق الحياة الاجتماعيّة. فسيكون لي نمط العلاقات نفسها مع ذلك الرأسماليّ، وتلك السيّارة، وهذه الشركة، وذاك المصنع، وذلك العالم، وتلك الأرض، سواء كنت موحّدًا أو لو لم أكن موحّدًا؛ لأنّ الأمر في مثل هذا التوحيد هو هكذا! فانظروا إلى تلك الدول الرأسماليّة في العالم، وإلى تلك القوى العظمى التي ملأت أسماؤها ودعواتها شرق العالم ومغربه، وانظروا إلى ذينك الرأسماليّين، أو ذينك التاجرين الكبيرين، أو إلى هذين المصنعين الكبيرين، أو إلى شخصين من أباطرة الصناعات بحسب قولهم، وافرضوا أنّ أحدهما يعتقد بالله، والآخر ماديّ؛ فما هو التفاوت والاختلاف بين سلوكيهما؟ فلو أنّ ذاك المعتقد بالله ذهب إلى الكنيسة يوم الأحد ودفع مبلغًا ضئيلًا من «شاهى»[١٩] لذاك الراهب السيّء الحظّ التعيس من أجل أن يغفر له بعض ذنوبه وآثامه، ويعبّد له في المقابل طريق الجنّة لبضع كيلومترات؛ فماذا سيكون تأثيره في حياته؟ وفي أوضاع مصنعه؟ وفي علاقاته مع العمّال؟ وفي روابطه مع الناس؟ وما هو التأثير لكيفيّة ادّخاره للثروة وتكديسها وإنفاقها

(١٩) وحدة نقديّة تساوي واحد من عشرين من الريال وكانت رائجة في العهد القاجاريّ وأوائل العهد البهلويّ.

وجمعها؟ إنّ هذا التوحيد لا يختلف عن الشرك كثيرًا.

إنّ التوحيد الذي يدعو إليه الإسلام هو التوحيد الذي يسمو عن كونه مجرّد جوابٍ عن سؤالٍ أو استفهام. فما هو إذن؟ إنّ التوحيد الإسلاميّ هو إلهامٌ في مجال الحكومة وفي مجال العلاقات الاجتماعيّة، وفي مجال مسير المجتمع، وفي مجال الأهداف الاجتماعيّة، وفي مجال تكاليف الناس، وفي مجال المسؤوليّات التي يحملها الناس فيما بينهم تجاه الله وتجاه المجتمع وفي مقابل الظواهر الأخرى للعالم. التوحيد الإسلاميّ هو تلك الألف التي يأتي بعدها باء، ومن ثمّ جيم، ومن ثمّ دال، إلى آخر الحروف الأبجديّة. فالتوحيد لا ينحصر بأن تقول بأنّ الله واحدٌ وليس اثنين وتنتهي القضيّة. «إنّ الله واحدٌ وليس اثنين» يعني أنّه لا حقّ لأحدٍ بأن يأمرك سوى الله في كلّ نطاق وجودك الشخصيّ والاجتماعيّ بالعموم.

«إنّ الله واحدٌ وليس اثنين» يعني أنّ كلّ ما لديك من ثروةٍ وكلّ البشر الآخرين هم لله، فأنتم لستم سوى مستودع وحملة الأمانة لا أكثر. فمن هو الذي يكون مستعدًّا الآن ليكون موحّدًا؟ أنتم حملة الودائع الماليّة لا غير، أنتم مستأمنون. فلو كنت يا صاحب الجناب العالي تحمل مالًا كأمانةٍ من رفيقك، فماذا تفعل؟ لا شكّ أنّك ستنتظره لكي يأخذه. يا فلان، اعطِ عشر تومانات من هذا المال لذاك الصبيّ، ولهذا العجوز، ولذاك الغريب، ولذلك القريب، وأودع عشر تومانات من هذا المال في الصندوق الفلانيّ، وأحرق عشر تومانات منه من الأساس؛ فأنت تنتظر إمضاء صاحب المال فقط، وهل يوجد شيءٌ آخر غيره؟ فهل ترى لنفسك حقًّا أو مالكيّةً لهذا المال الذي وُضع بيدك كأمانةٍ ووديعة؟ المال مال الله جعله ودائع عند الناس. هذه هي مستلزمات التوحيد.

لو كنت تؤمن بالتوحيد، فلا معنى عندها لأيّ نوعٍ من الاختلاف الطبقيّ والتمييز، كلّ ذلك ينبغي أن ينتفي. ذلك المجتمع الذي يوجد فيه الشبعان والجائع والعالي والداني، هو ليس مجتمعًا توحيديًّا. إنّ مستلزمات التوحيد

أنّكم جميعًا من آدم وآدم من تراب، وأنّ أكرمكم عند الله أتقاكم فقط. وكلّ من كان أكثر رعايةً لأوامر الله هو الأعلى. أمّا ذاك المجتمع الذي يوجد فيه آلاف الأسباب التي تؤدّي إلى التمييز ـ أنت تقول: يا فلان إنّ ذلك الشخص هو هكذا، يقول: حسنٌ، إنّ فلان من النبلاء ويطيح بكلّ شيء. فذاك المجتمع الذي ينقسم إلى نبلاء وغيرهم، وفي ذاك المجتمع الذي تختلف فيه معاملات الناس فيما بينها بشدّة، ويعدّ بعض الأشخاص ذلك حقًّا لهم، وفي ذاك المجتمع الذي لا يوزن عباد الله جميعًا بميزانٍ واحد ويكون بعضهم عبيدًا للبعض الآخر؛ فمثل هذا المجتمع لا يكون مجتمعًا توحيديًّا. فعندما يحلّ التوحيد في مجتمع ما، فإنّه يعامل جميع عباد الله وفق ميزانٍ واحد، فماذا يعني هذا؟ إنّه يعني أنّ الجميع يصبحون عبيدًا لله كما أسلفنا ذكره.

إنّ موجودات العالم من الإنسان وغيره، كلّهم عبادٌ خاضعون لله؛ الكلّ شريكٌ وبنفس المستوى من ناحية العبوديّة لله. وقد فصّلنا سابقًا في هذا الأمر، وقلنا إنّه لا يوجد أيّ شيءٍ أو أيّ شخص يخرج عن دائرة العبوديّة لله تحت عنوان البنوّة أو الزوجيّة أو الندّيّة. عندها، وعلى أساس دائرة العبوديّة لا يعود هناك أيّ معنًى لأن يكون بعض الناس عبيدًا وبعضهم الآخر يضعون في أعناقهم تلك الأغلال.

إنّ العبوديّة لله هي التحرّر من العبوديّة لغير الله؛ فهذان الأمران لا ينسجمان فيما بينهما من الأساس. ولا معنى أن يكون شخصٌ عبدًا لله وفي نفس الوقت عبدًا لغيره تعالى.

يأتي مبعوث جيش الإسلام[٢٠] ويدخل ذلك القصر المهيب للساسانيّين. تصوّروا كيف سيكون عربيٌّ بلباس عسكريّ من رأسه إلى أخمص قدميه؟! لعلّه من هذه الجهة لن يساوي تومانًا واحدًا، ثمّ يدخل قصر ذاك الذي بدأ بالفرار من جيش المسلمين الصالحين الذي كان يتعقّبه، وفي صحبته

(٢٠) مبعوث جيش الإسلام هو ربعيّ بن عامر.

أكثر من ألف جارية مغنّية إلى جانب أشياء كثيرة أخرى، فعدد المطربات اللاتي كنّ بصحبته بلغن ألفًا! وكيف سيكون وضعه في الحضر إذا كان الأمر كذلك في السفر؟! سفر الفرار والهروب، سفرٌ لأجل النجاة بالنفس. فيا سيّء الحظّ إلى أين تأخذ المطربات معك؟! خذ سيفك، وأظن أنّ هؤلاء الساسانيّين كانوا تحت استعمار اليهود أو كانوا كاليهود أيضًا! هذه من خصائص سياسات الصهيونيّة المشؤومة المنحطّة التي تشغل الناس بالملاهي وبتلك الأغاني والأجواء الصاخبة وتحت أسماءٍ مختلفة.

يدخل ذلك الرجل بردائه البالي بلاط؛ تلك القدرة السياسيّة العظيمة. فهل أنّه شعر بالخوف؟ وهل تظنّون أنّه ارتعب؟ أو تردّد في أفكاره؟ أبدًا. أيّ إنسان حقيرٍ وصغيرٍ عندما يكون في مقابل أيّة قدرة عظيمة فإنّه يكون مستعدًّا لأن تكون همّته عالية عسى أن يتمكّن من أن يوصل نفسه أو يتّصل بتلك القدرة العظيمة ولو بمقدار ذرّة، وأن يتقرّب منها ولو خطوة، وإن اقتضى الأمر التملّق وإظهار الخوف والعبوديّة؛ فهل تظّنون أنّ مثل هذا الأمر حدث لهذا الرجل؟! أبدًا. يُقال إنّه عندما تقدّم من العرش، وضع قدمه على عرش يزدجرد أيضًا لأنّ يزدجرد لم يأتِ لأخذ تلك الورقة منه. ولمّا لم يقم السلطان من مكانه ليأخذ الورقة من هذا العربيّ، اضطرّ هذا العربيّ لأن يتقدّم؛ فتقدّم حتّى وصل إلى عرشه وأعطاه الورقة، مثلًا. فقال له: لأيّ شيءٍ جئت إلى هنا؟ فذكر له ثلاث جمل - ينبغي لهذه الجمل الثلاث أن تُكتب بخطٍّ ساطع على لوحٍ ويثبّت هذا اللوح على قصر الإنسانيّة العظيم لكي يعرف الجميع ما هو شعار الإسلام ونهجه - قال: إنّنا جئنا لنخرج الناس - بالتأكيد كان هذا في سياق كلام، لكن هذه الجمل الثلاث هي مورد نظرنا - من عبادة العباد إلى عبادة الله.

فما هي عبادة العباد؟ إنّ العبوديّة للعباد هي هذه: عندما يأتي ذلك الرجل العجوز وأثناء تعبئة إيران والروم للجيوش، وبعد أن يصدر أحد سلاطين إيران الماضين - قبل الساسانيّين - من الهخامنشيّين أمرًا بأنّ

على الجميع أن يأتوا، يأتي ذلك العجوز ويقول: يا فلان، إنّ لديّ ثلاثة أولاد مستعدّون لأن يأتوا إليكم ويشاركوكم القتال، ولكن اتركوا لي هذا الولد لأنّني عجوز ولم أعد قادرًا على العمل، فابقوه لي لكي يخدمني. فلا يجيبونه بشيء ويخرجونه من المجلس. وفي اليوم التالي، وبعد أن أصبح الكلّ في حالٍ من الجهوزيّة والاصطفاف ويريد الجيش أن يتحرّك، يتفاجأ الإخوة الثلاثة عندما يصلون إلى باب القلعة برؤية أخيهم الرابع وقد قُطّع قطعتين، وُضعت قطعة منه في هذا الجانب من القلعة، والقطعة الأخرى في ذاك الجانب لكي لا يقول العجائز لبعض أبنائهم أن لا يأتوا ويحاربوا لمصلحة سلطة داريوش أو يقتلوا أنفسهم من أجله. هذه هي العبوديّة للإنسان.

عندما لا يكون للناس في مجتمعٍ ما الحقّ في المطالبة بما يريدون، بل ليس لديهم الحقّ بأن يطالبوا بالعدالة وبأن يعادوا التمييز في مجتمعٍ ما؛ ولا أن يطلبوا لأنفسهم الحرّيّة ويحبّونها؛ وعندما يقبلون بالقمع والكَبت كوضعٍ طبيعيّ ويعتبرونه سليمًا، عندها يعيش الناس في مثل هذا المجتمع، فهذا يُعدّ من أسوأ وأبشع وأمرّ أنواع العبوديّة. لماذا نعدّ هذا الأمر من أسوأ أنواع العبوديّة؟ لأنّها خادعة. أولئك الذين كانوا يذهبون ويأسرون مجموعة من الأبرياء في المنطقة الفلانيّة ويحلقون رؤوسهم ويبيعونهم في بلادٍ أخرى، فهؤلاء كانوا يقومون بعملٍ علنيٍّ سافرٍ؛ أمّا أن يتلاعبوا مع الناس بهذه الطّريقة ويهملوا هذا النوع من الفكر والمطالب والإرادة والعزم في الناس ويدوسوا عليها جميعًا؛ فهذا أمرٌ آخر.

قال: لقد جئنا لنخرجكم من عبادة العبيد، وهو يقصد الناس؛ أي يا يزدجرد نخرج الناس من عبادتك، ونخلّص الآخرين من عبادة ولاتك وقادتك والإقطاعيّين، ومن عبادة العباد في كلّ زاوية. فإلى أين تأخذهم؟ وعندما لا تعود العبوديّة لك، فكيف سيكون الوضع؟ هل سيكون الأمر على وجه التحرّر والانعتاق من كلّ قيد؟ كلّا؛ هناك العبوديّة لله، وهي تعني

الحريّة والسيادة والارتقاء في مدارج الكمال، والاستفادة مهما أمكن من إمكانات التكامل، كلٌّ بحسب ما يريد؛ هذا هو النحو الذي ينبغي أن يكون عليه المجتمع الإسلاميّ. ففيه، يكون الناس عبيدًا لله لا للقوى المختلفة. حتّى في ذاك الزمن الذي انحرفت فيه مسيرة المجتمع الإسلاميّ ولم يبقَ الإسلام الصافي، كان الأمر كذلك، وفي تلك السنوات التي تمّ فيها فتح إيران كانت آثار التربية النبويّة والقرآنيّة موجودةً بين الناس. لقد كان هناك حاكمٌ سياسيّ يقف على المنبر ويقول: لو أنّني انحرفت فقوّموني؛ ويرتقي عربيٌّ من البادية المنبر ويقول: لو أنّك أيّها الحاكم انحرفت ولم تستقم، فإنّني سوف أقوّمك بسيفي هذا. فهل انهال الجنود والشرطة عليه؟ وهل وضعوه في السجن بحجّة الإخلال بالنظام، أو قضوا عليه، أو أعدموه؟ أبدًا. لقد قال كلامًا صحيحًا ومنطقيًّا. فالحريّة لا تعني إطلاق العنان. إنّها تعني اتّباع القانون الإنسانيّ الصحيح الذي لا يحمل على أرواح الناس في ذلك النظام وفي ذلك المجتمع أيّ حملٍ حتّى حمل الحاكم. فإذا نطق الحاكم بكلام من جانب الله وبإلهام منه فهو حاكمٌ إسلاميّ، فيكون كلامه مقبولًا. وإذاً لم يكن كلامه بإلهام من الله فيكون مردودًا.

«لنخرج مَن شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة»[٢١]. الجملة الثانية ترتبط بضيق الدنيا ومحدوديّتها، بالمجتمع الذي لا يعيش فيه الناس وفق رؤيةٍ صحيحة، فأينما جالوا بأبصارهم لا يرون سوى الدنيا والمنافع الدنيويّة، وأينما نظروا لا يُعرض عليهم سوى الملذّات الدنيويّة والأماني الدنيويّة، وأينما اتجّهوا لا يرون سوى تلك المساعي الحيوانيّة الحقيرة والمصالح المنحطّة والآنيّة الزائلة. لم يكن الناس في ذلك المجتمع الذي يحكمه يزدجرد ويتسلّط فيه على الناس، راضين عن يزدجرد، بل أكثرهم كانوا على عكس ذلك. فحتّى أولئك

(٢١) ابن كثير، **البداية والنهاية**، تحقيق وتدقيق علي شيري (بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة ١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، الجزء ٧، الصفحة ٤٦.

الذين لم يكونوا راضين - فلأنّ أبصارهم كانت محدودة وضيّقة الأفق؛ ولأنّهم كانوا يرون أنّهم لو أظهروا القليل من عدم الرضا أو الانزعاج من يزدجرد، فإنّهم سيُسلبون تلك الحياة الزائلة الفانية الحقيرة وسيُسلبون لقمة العيش ولن يبقى لهم أن يعيشوا يومًا أو يومين في راحة؛ ومن أجل أن يمشوا في الأزقّة والشوارع خطوتين إضافيّتين، ولأنّهم كانوا يرون أهميّةً كبيرةً لمثل هذه الأمور المنحطّة، ولأنّهم كانوا يحبّونها حبًّا جمًّا، فإنّهم لم يكونوا مستعدّين للقيام بأيّ عملٍ من أجل [نيل] حريّتهم وشرفهم وأصالتهم وكرامتهم الإنسانيّة. ما هو سبب ذلك؟ إنّه ضيق الأفق والنظرة المحدودة، أي ضيق الدنيا.

أمّا عندما يصبح الإنسان مسلمًا، فإنّ كلّ شيءٍ يصبح بالنسبة له مقدّمة ووسيلة. فلأجل أيّ شيء؟ ووسيلة لأيّ شيء؟ وسيلة للوصول إلى ذلك العالم الواسع - لا أقول عالم ما بعد الموت - فإنّ عالم الفكر والتصوّر والرؤية للإنسان هو وسيعٌ بسعة الله. عندها، كلّ شيءٍ يصبح وسيلة للإنسان كي يتمكّن من الوصول إلى رضا الله ونوائله. فالحياة الدنيا ومالها وراحتها وكلّ المحبوبات الدنيويّة ليس لها قيمةٌ وأصالة؛ وإنّما يصبح لها قيمة عندما تكون في سبيل الله. أمّا إذا لم تكن كلّ هذه المحبّة والمقام والحياة والأبناء والشأنيّة والحيثيّة في سبيل الله وفي سبيل القيام بالوظيفة، فلن تكون بالنسبة له ذات قيمة أو أهمّيّة. فالدنيا والآخرة بحسب الفكر الإسلاميّ متّصلتين، وبالنسبة للإنسان المسلم لا تكون الدنيا هي النهاية. وبنظر ذاك الذي جعل نفسه عبدًا للعباد ولبعض الكائنات الناقصة، فإنّ الدنيا تكون محدودة. أمّا بالنسبة للمسلم الحقيقيّ فإنّ الدنيا واسعة، ويكون الموت قنطرةً وجسرًا ونافذةً إذا نظر منها، فسيرى في الجانب الآخر الجنّات والبساتين والعوالم. لهذا، يرى أنّ ما فوقه هو هذه الأمور، وما عليه سوى أن يصل إلى هذا المعبر ويعبره، وعندها لا يكون الموت بالنسبة له أمرًا معضلًا. إنّ هذه الأمور التي ذكرناه كانت بعض تجلّيات التوحيد وزواياه.

وبالتأكيد، كان ينبغي الحديث بشأن التوحيد بصورة أكثر تنظيمًا وضمن عنوان أكثر تحديدًا؛ وإن شاء الله سنتحدّث عنها لاحقًا.

كانت هذه في الحقيقة نظرة جديدة في مجال التوحيد يتمّ عرضها، وهي تبيّن رؤيةً صحيحةً في مجال التوحيد. وبالطبع، هناك المزيد من الأبعاد والزوايا التي لم تُدرج هنا وأملنا أن نتمكّن من تنظيمها وإدراجها في الأوراق الآتية إن شاء الله. ولكن، على كلّ حال، ما دُوّن هنا هو أحد أبعاد التوحيد الذي يعكس ويبيّن بصورة دقيقة ما يرتبط بالتوحيد المرجوّ، والتوحيد الذي هو مورد نظر الأديان والقرآن بالخصوص.

وأمّا الآيات التي أخذناها بعين الاعتبار وإنّ تكرار آية الكرسيّ هو أمرٌ ملفتٌ جدًّا كعنوان لشعار التوحيد، حيث أحتمل أنّ السبب وراء كلّ هذا التأكيد على تكرار قراءة آية الكرسيّ في العديد من الموارد هو من أجل أن يبقى هذا الذكر حيًّا قيّومًا في ذهن الإنسان.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا﴾[٢٢]، فهؤلاء اتّخذوا من غير الله أشخاصًا مَنافسينَ ورقباء فَاختَاروا لله شركاء من جنس البشر أو غيرهم. ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾[٢٣]، وهنا بالذات تفتح هذه الآية قوسين، فهي لا تتحدّث عن المحبّة ولكن بما أنّ الحديث عن محبّة هؤلاء بلحاظ محبّة الله، فكأنّها فتحت قوسين كجملة معترضة، فتقول: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾[٢٤]. فالله بالنسبة للمؤمن هو أكثر محبوبيّةً من كلّ هذه المظاهر، ومن كلّ هذه الأقطاب التي تجذب قلب الإنسان كالمغناطيس، ومن كلّ هذه الآلهة الكاذبة من آلهة النفس والشهوة التي تدعو الإنسان إلى الاقتناص، ومن تلك الآلهة التي اعتلت المناصب الاجتماعيّة واحتلّت مقاماتها.

---

(٢٢) سورة **البقرة**، الآية ١٦٥.

(٢٣) سورة **البقرة**، الآية ١٦٥.

(٢٤) سورة **البقرة**، الآية ١٦٥.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾[٢٥]. ينتقل فجأةً للحديث عن ساحة القيامة؛ عن ذلك الوقت الذي يُجمع فيه الخلائق ويُحشرون، من الكفّار وأهل السوء والذين عبدوا غير الله بالإضافة إلى عباد الله. فكلّ الظواهر الموجودة في القيامة، ما بُيّن لنا منها وما لم يُبيّن، كلّ ذلك يُجمع، وتكون أسباب العذاب الإلهيّ والرحمة واللطف الإلهيّين أيضًا. أمّا كيفيّة هذه الأسباب، فأنا وأنتم، لا يمكننا لحدّ الآن أن ندركها أو نتصوّرها، يصعب في هذه الدنيا فهمها [ومعرفة] ما هي حقيقة خبرها؛ لكنّنا نعلم ذلك على نحو كلّيّ فندرك أنّ هناك أسبابًا للعذاب وللخزي والكلّ حاضرٌ وجاهزٌ. فعبيد الله الصالحون، وعبيد الله السيّئون موجودون هناك جميعًا. ثمّ يرى الظالمون فجأةً أنّ كلّ القوّة والقدرة في القيامة هي لله. وكم هو أمرٌ مدهشٌ وعجيب.

غاية الأمر، أنتم تنظرون إلى هذه الدنيا الآن، ولكلّ إنسانٍ قدرة، ولكلّ إنسانٍ فعل؛ والذين يتبوّؤون المناصب العليا قدرتهم أعلى، ولكن حتّى الذين يقعون في أسفل القائمة لهم قدرةٌ أيضًا، والكلّ معجبون بقدرتهم، وكلّ من لديه درجة أو شيء من القدرة، فإنّه يرى لنفسه تأثيرًا في النهاية، خصوصًا ذلك الظالم الذي يكون فعله أكبر وقدرته أعلى. فذاك الظالم الذي قام بتلك العبادة الظالمة - فهو أيضًا ظالمٌ - فإنّه كان يظنّ بحسب خياله أنّ [عبادته تلك] نابعةٌ من قدرة لأنّه ارتبط بقدرة أعلى، مثل ذلك الثعلب الذي ربط ذيله بذيل الجمل. هكذا يكون الأمر في الدنيا. أمّا يوم القيامة، عندما يجتمع الكلّ، فأينما نظروا، وعندما يرجع كلّ إنسانٍ إلى نفسه، فإنّه لن يجد أيّة قدرة وأيّة حيثيّة في نفسه، فالقدرة والقوّة كلّها لله، ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾[٢٦]. فعندما يرى الظالم مثل هذا المشهد سيقول - سواءً كان يظلم غيره أو يظلم نفسه أو جعل نفسه عبدًا

(٢٥) سورة **البقرة**، الآية ١٦٥.

(٢٦) سورة **غافر**، الآية ١٦.

لذلك الظالم - عندما ينظر فإنّه سيقول ما أعجب هذا الأمر! هنا، فإنّ كلّ هذه الادّعاءات وكلّ هذه المفاخر والقصور وأنواع الحياة كلّها ستكون هباءً وسرابا، ولن يكون لأيّ أحد أيّة قدرة على التأثير.

عندها سيكون المشهد مشهدًا عجيبًا. افترضوا جماعتين؛ الأولى تعبد الجماعة الأخرى وتطيعها دون قيد أو شرط، ثمّ يأتي يوم القيامة وتتواجهان ويبدأ الخصام والنزاع بينهما، ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾[٢٧] - ولقد أوضحنا أنّ هذا الظلم هو عبارة عن العبوديّة لغير الله، وقد اتّبعنا في هذا البيان كلام بعض المفسّرين الشيعة القدماء - فعندما يرون أنّهم قد ظُلموا باتّباعهم وعبوديّتهم لغير الله، ويشاهدون هذا العذاب، فماذا سيرون؟ ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

كلّ ذلك يرجع إلَى الله، وإنّ الله شديد العذاب. فلو كانوا يرون، ماذا كان سيحدث؟ إنّ جوابه مقدّرٌ، ولا شكّ أنّهم سيندمون على أفعالهم ويندمون على ما جنوا في هذه الدنيا واحتطبوا فيها بجعلهم أنفسهم عبيدًا للظالمين. لقد صار حالهم على هذه الوخامة والذلّة يوم القيامة، ولم يعد بإمكانهم أن يفعلوا أيّ شيء. ولو نظروا بعين الاعتبار لرأوا أنّهم كانوا في الدنيا كذلك. ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾[٢٨] فالزعماء ساعتئذ سيرفضون أتباعهم ويتبرّؤون منهم، ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾، عندها مثلًا سيقول يزدجرد: إلهي إنّني أتبرأ من أولئك الذين كنت تراهم يعبدونني في زماني، فلا تتصوّر أنّني أحبّهم لأنّهم جعلوني شريكًا لك، لقد أخطأوا عندما جعلوني كذلك وأنا أتبرّأ منهم. فتأمّلوا الآن كيف سيكون حال رعيّة يزدجرد وأيّ درجةٍ من حرقة القلب والندامة سيبلغون! حيث ضحّوا بدنياهم وآخرتهم من أجل هذا الحقير، وها هو الآن يتبرّأ منهم. فماذا تقول الآية القرآنيّة ها هنا؟

---

(٢٧) سورة **البقرة**، الآية ١٦٥.

(٢٨) سورة **البقرة**، الآية ١٦٦.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾، فهناك تنتفي العلائق والروابط، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُا مِنَّا﴾، فيتمنّون لو أنّهم يرجعون إلى الدنيا لكي يتبرّأوا من زعمائهم كما يفعل هؤلاء الزعماء يوم القيامة، ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

يوجد في هذا المورد مطلبٌ آخر يُستفاد من هذه الآية وهو أنّ أولئك يرزحون تحت نير العبوديّة لغير الله، ويعانون بسبب هذه العبوديّة، أي بسبب غير التوحيد ومعاداة التوحيد، مع أنّ القرآن يعبّر عنهم بقوله ﴿اتَّبَعُوا﴾.

الجلسة العاشرة: العبادة والطاعة المنحصرة باللّٰه
السبت، ١١ رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجريّ شمسيّ

بسم اللّٰه الرحمن الرّحيم

﴿هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ * قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ (٢٩).

(٢٩) سورة **يونس**، الآيتان ٣٠ و٣١.

إنّ بحث التوحيد في **القرآن** هو بحثٌ واسعٌ جدًّا ومفصّل. ويمكن القول أيضًا إنّه من أكثر الأبحاث طولًا واتّساعًا وتفصيلًا والتي يمكن مشاهدتها في كلّ **القرآن**؛ حتّى بحث النبوّة وبالرغم من كلّ هذا الاتّساع والامتداد الذي فيه، ومع ما في ذلك من قصص وقضايا نُقلت حول الأنبياء كعبر في شتّى الموارد، فإنّ التركيز على التوحيد وقضيّة وجود الله - لا سيّما ما يتعلّق بنفي الشرك وبأساليب وصور بشتّى - لا مثيل له ولا شبيه في كلّ **القرآن**؛ سواءٌ كان ذلك من ناحية أسلوب الحديث أو من ناحية عدد الآيات. أمّا من ناحية اتّساع البحث وتشعّباته، فإنّ القضايا التي ترتبط بالتوحيد هي الأكثر والأوفر. ويمكننا أن نعرض عدّة قضايا في هذا المجال بالاستشهاد بالآيات القرآنيّة، ولا يمكن طرح جميع القضايا فيما يتعلّق بالتوحيد، وبحثها.

ويبدو أنّنا إذا قبلنا أنّ التوحيد، إلى جانب أنّه تصوّر ورؤية للواقع والواقعيّة، وإلى جانب أنّه معرفةٌ منتجةٌ للعمل وبانيةٌ للحياة، هو عقيدةٌ تتضمّن الالتزام والمسؤوليّة، فيجب أن نبحث عن هذا الالتزام وهذه المسؤوليّات المنطوية والمندرجة في قلب التوحيد. ومن ثّم نجعل كلًّا منها على صورة مادّة مادّة، وجملة جملة، وفصل فصل، وكلًّا منها تحت عنوان، بعدها نقوم بتتبّعها في **القرآن** أو في مجموع المصادر الإسلاميّة، أي **القرآن** والحديث واستقصائها.

فلو كان من المقرّر أن يكون التوحيد عقيدةً تستتبع التزامًا ومسؤوليّةً وتكليفًا بالنسبة للمعتقِد بها، فيلزم أن يتعرّف على هذه المسؤوليّات والالتزامات والتكاليف في نهاية المطاف، ويفهم ماهيّتها. فهل يمكن اختصار هذا الالتزام في مثل هذا الأمر: وهو أن نقبل هذه العقيدة بلساننا أو بقلوبنا أو بفكرنا؟ أي هل إنّ هذا الاعتقاد نفسه هو مسؤوليّة، أم أنّه يتعدّى نطاق الفكر والقلب وحدود هذه المسؤوليّة فيستلزم سلسلة من التكاليف المتناسبة مع ما يقتضيه التوحيد، تطال بدورها الأعمال

الشخصيّة للموحِّد مثلًا؛ فيكون من جملة ذلك الصلاة أو أن يأتي على ذكر الله في بداية ونهاية كلّ عملٍ يريد أن يقوم به، ويكون من جملتها إذا أراد أن يذبح خروفًا أن يذكر اسمَ الله عليه، وأشياء من هذا القبيل.

وهل يمكن اختصار [الالتزام] بهذه الحدود وهذا النطاق أم لا؟ أم أنّ الالتزام الذي يضعه التوحيد على الفرد أو المجتمع الموحِّد يتعدّى التكاليف الشخصيّة والفرديّة؟ فيشمل هذا الالتزام الذي يلقيه التوحيد على أيّ مجتمعٍ موحّد أهمّ وأولى وأشمل وأكبر قضايا المجتمع؛ مثل أيّ شيء؟ مثل الحكومة والاقتصاد والعلاقات الدوليّة، ومثل علاقات الأفراد فيما بينهم، والتي تشكّل جميعها الحقوق الأساسيّة وأبرزها فيما يتعلّق بإدارة أيّ مجتمع وحياته. نحن نعتقد أنّ الالتزام التوحيديّ والمسؤوليّة التي يلقيها التوحيد على عاتق الموحّد هي في نطاق المسؤوليّات والتكاليف الأساسيّة والحقوق الرئيسيّة لأيّ مجتمع.

وبكلمةٍ واحدة نقول: إنّ هيئة وقوام المجتمع التوحيديّ يتباين مع هيئة وقوام المجتمع غير التوحيديّ. فالأمر ليس على نحوٍ واحد بين المجتمع التوحيديّ الذي يريد أن يطبّق قانونًا أو عشرة قوانينٍ مثله، وبين مجتمع غير توحيديّ إذا قام هذا المجتمع بتطبيق هذه القوانين، فيصبح بذلك مجتمعا توحيديًّا؛ كلّا. إنّ شاكلة وهيئة المجتمع التوحيديّ، وتشكّل أجزاء هذا المجتمع، والقوام الاجتماعيّ العامّ الذي يتحقّق على أساس التوحيد بشكله العباديّ والتوجّهيّ، يختلف تمامًا عن غيره من المجتمعات؛ وهو ما يُعبّر عنه اليوم بكلمةٍ واحدة: النظام الاجتماعيّ.

فالنظام والشكل الاجتماعيّ للمجتمع التوحيديّ يغاير ويباين المجتمع غير التوحيديّ بصورة تامّة، لا بل يمكن أن يكون أحيانًا على تعارض وتضادّ معه. فبجملةٍ واحدة يكون الأمر هكذا. فلو أنّكم سبرتم أغوار هذه الكلمة، ستجدون في قلب النظم الاجتماعيّة والشاكلة والهيئة الاجتماعيّة كلمات وأبحاث، يمكن إدراكها وفهمها بالاستمداد من الثقافات الجديدة

والمعاصرة الرائجة في العالم، ويمكن ذلك أيضًا وعلى نحوٍ أفضل بالاستمداد من **القرآن** والمصادر الحديثيّة؛ هذا هو الشكل الكلّيّ للمطلب.

أمّا إذا أردنا أن نعرض الأمر على نحوٍ جزئيّ وأكثر تشخيصًا وخصوصيّة، فإنّنا نعرض التوحيد بصورة دستورٍ أو قانون يحتوي على مواد مختلفة ونقوم ببيان هذه المواد واحدةً واحدةً. فما هي مواد الدستور التوحيديّ؟ ومثلما يحدث بعد المفاوضات المختلفة بين جماعتين أو جبهتين أو شخصين، حيث تصدر مقرّرات على شكل معاهدة تكون ملزمة لهما؛ فإنّ الموحّدين في هذا العالم ملزمون من جانب ربّهم، ربّ التوحيد، بتطبيق هذه المعاهدة والعمل بها وتنفيذها. وبناءً على أصل التوحيد، فإنّه لا يحقّ للناس ولا لأيّ شخصٍ أو موجود أن يعبد غير الله أو يطيعه، فهذا هو الأصل الأوّل في المعاهدة التوحيديّة. وعندما قلنا أيّ شخصٍ أو أيّ شيء، فذلك لأنّ حدود الأمر ونطاقه واسعٌ جدًّا. فانظروا وتأمّلوا أين تصدق العبوديّة والطاعة.

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾، لقد تمّ توضيح معنى العبوديّة للشيطان ضمن الأبحاث السابقة المختلفة عند الحديث عن الشيطان. فالشيطان ليس عبارة عن جناب إبليس أو ذاك الشيء الخفيّ والمستور الذي لا يمكن رؤيته بالعين أو لمسه باليد، بل يمكن أن يوجد في جميع أنحاء حياة البشر، وهو ليس منحصرًا بالشيطان [نفسه].

الشيطان هو مسألة واسعة ومفهومٌ عامّ. هو تلك القوى الشرّيرة التي تكون خارج وجود الإنسان، والتي يكون لها الدافع والفعل والتأثير. فالقوى التي توجد الشرّ هي ما يمكن أن يُقال عنه شيطان، لكنّها تكون قوى خارجة عن نطاق وجود الإنسان نفسه. وكما أنّه إذا أردنا أن نعرّف النفس - التي هي قرين الشيطان وعبد الشيطان وآلةٌ بيد الشيطان وفعله - يمكننا أن نعرّفها على هذا النحو: إنّها القوى الباطنيّة للإنسان التي توجد الشرّ

وتدفعه نحوه. فكلٌّ من النفس الأمّارة والشيطان عبارة عن تلك القوى التي تؤدّي إلى الفساد وتوجد الشرّ، وهي القوى التي تؤدّي إلى الانحراف والانحطاط. غاية الأمر أنّ أحدهما داخليّ والآخر خارجيّ. فالشيطان هو كلّ شيءٍ خارج وجودك يوجد العقبات على طريقك، ويخلق الشرّ ويشعله ويوجد الموانع والأشواك؛ وهو ذاك السبع وقاطع الطريق، أو أيّ شيء يؤدّي إلى وجود هذا الذئب المفترس وقاطع الطريق، هذا هو الشيطان.

إنّ جميع الأنبياء الذين بُعثوا من جانب الله كان لهم أعداء من شياطين الجنّ والإنس. وبالطبع، سوف نشخّص ونحدّد هؤلاء الأعداء وماهيّتهم وشاكلتهم ومن أيّ طبقاتٍ وجماعاتٍ كانوا ولماذا أظهروا مثل تلك العداوة، فالشيطان هو ذاك المفهوم العامّ. ﴿أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾، ماذا تعني؟ لا تعبدوا ولا تطيعوا ولا تخضعوا لتلك القوى التي توجد الشرّ. فعندما نقول إنّ التوحيد يعني ذلك، لا بمعنى أنّ هذا هو التوحيد كلّه، كّلا. فإنّ رقائق ودقائق التوحيد تبقى في مكانها ومقامها. أمّا تفريعات وهياكل التوحيد الأخرى فتمثّل هيكلًا أو جسمًا أو مظهرًا لأساس التوحيد: عدم الطاعة وعدم العبوديّة وعدم الإذعان لما يتمّ فرضه.

نُقل عن الإمام [الصادق(ع)] عليه السلام في كتبنا المعتبرة، ومنها **أصول الكافي** الشريف، وتحت عنوان حديث قدسيّ، وذلك بصيغ وعباراتٍ مختلفة، ويبدو أنّ ما بقي منه ويمثّل أكثر العبارات قربًا وتفصيلًا هي هذه:

لأعذّبنّ كلّ رعيّة في الإسلام دَانَتْ بولاية كلّ إمَامٍ جائرٍ لَيْسَ مِنَ اللهِ، وَإِنْ كَانَتْ الرعيّة فِي أَعْمَالِهَا بَرَّةً تَقِيَّةً؛ ولأعفونّ عن كلّ رعيّةٍ في الإسلام دَانَتْ بولاية كلّ إمَامٍ عادلٍ مِنَ اللهِ وَإِنْ كَانَتْ فِي أَعْمَالِهَا ظَالِمَةً مُسِيئَةً[٣٠].

فإنّ إطاعة السلطة التي لا تكون من جانب الله وتمثّل الله، أو هذا المركز والدائرة التي لم تتبع سلطتها من جانب الله، تُعدّ على حدّ الشرك

(٣٠) الكليني، **الكافي**، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري (طهران: دار الكتب الإسلاميّة، الطبعة ٣، ١٣٦٧هـ. ش)، الجزء ١، الصفحة ٣٧٦.

أو الشرك نفسه. فالناس الذين يفعلون ذلك وقد ابتُلوا بمثل هذا الداء والبلاء، وإن كانوا في أعمالهم الشخصيّة أشخاصًا منظّمين ومرتّبين، «برّة تقيّة»، واقعون في مثل هذا الانحراف الاجتماعيّ الكبير. وهذا البلاء العظيم يؤدّي إلى أن ينزع الله تعالى نظر لطفه ورحمته عن هذه الأمّة ويجعلها في عذاب وعقاب ونقمة منه.

لماذا؟ لأنّ الطاعة والعبوديّة لغير الله، تتنافى مع ذلك الهدف الذي خلق الله الإنسان لأجله، ويتنافى مع تكامل الإنسان ورقيّه، ويتنافى مع حريّة الإنسان وصلاحه؛ تلك الحريّة والانعتاق اللذان يُعدّان مقدّمة تكامل الإنسان وسموّه. فما لم تتحقّق تلك الحريّات، وحلّ مكانها كلّ أنواع الأسر التي تحيط بالإنسان وتقيّده، فلن يتمكّن الإنسان من أن يحلّق إلى تلك الآفاق المرجوّة، ولن يتمكّن من أن يصل إلى مقامه الأسمى الذي حدّده الله له، ولن يقدر على التكامل. إنّ ذلك يشبه تلك النبتة التي يوضع عليها قبّعة، أو مثل تلك النبتة التي يُربط أسفل جذعها بشريطٍ أو سلكٍ محكم، ومثل النبتة التي توضع أمام نموّها عشرات الموانع وتحيط بها. فهذه النبتة لا يمكنها أن تنمو، وعندما تتوقّف عن النموّ، فإنّها لا تستطيع أن تثمر، وعندما تفقد القدرة على الإثمار فلا يعود هناك فائدة من وجودها، ولن يكون لمجيئها أيّ أثر. فلماذا جاءت؟ ولماذا ظهرت؟ هل كان هذا الوجود والظهور لغير الإثمار؟ إنّ طاعة غير الله والعبوديّة لغير الله تشبه هذه الآفة بالنسبة للإنسان. وعلى كلّ حال، يوجد الكثير من الآيات في هذا المجال في جميع أنحاء **القرآن**.

وينبغي أن نتعرّف إلى حدٍّ ما على نداء التوحيد في **القرآن**. فقد وصل وضعنا في مجال الاطّلاع على المعارف الإسلاميّة من **القرآن** إلى درجةٍ من السوء، والبُعد، والانشغال بسلسلة من التصوّرات العامّيّة والضعيفة - التي هي بلا أساس وأشدّ خواءً من أيّ خواءٍ، بل أضحت متوائمة مع الخُرافات والظنون الباطلة - بحيث إنّ هذا الظاهر المخادع والباطن الخاوي لم

يستطع أن يواجه أمواج المادّيّة، ولقد رأينا كيف أنّ هذا الظاهر قد زال أيضًا. فإمّا أنّه تمّ إشغالنا وإلهاؤنا بهذه الظنون، وإمّا أنّنا من جهةٍ أخرى قد شُغلنا بتلك الاستدلالات الجافّة الفاقدة للروح والأثر، والتي جميعها لا تمتّ إلى المسؤوليّة والالتزام بالتوحيد بصلة. فأيّة أبحاثٍ فلسفيّةٍ جافّة وفاقدة للأثر هي تلك الأبحاث؟!

انظروا كم بحث المتكلّمون حول التوحيد، وفي نفس الوقت كم قد كانت هذه الأبحاث عديمة الأثر من ناحية تشكيل وإيجاد المجتمع التوحيديّ. فلو أنّهم بحثوا لمدة مئة سنة في قضيّةٍ ترتبط بشأن من شؤون الحياة، مثلما بحثوا حول التوحيد، فهل كان من الممكن أن لا يكون هناك أثرٌ على صعيد الحياة بعد المئة سنة هذه؟! لقد بحثوا وتباحثوا لمئات السنين بصورةٍ جافّة ومخادعة من جهة الظاهر، وبصورةٍ فاقدةٍ للمحتوى من جهة الباطن، وبصورةٍ مجرّدةٍ وخاليةٍ من كلّ ما يرتبط بعالم الواقعيّة والخارج؛ والآن عندما نأتي إلى تلك الأبحاث نريد نحن أن نستمدّ منها التوحيد من أجل بناء حياةٍ جديدة، فإنّنا لا نجد بينها وبين ما نصبو إليه في أيّة علاقة أو رابطة، وكما نقول كالحجر في جنب الإنسان! فمع كلّ تلك الأبحاث والكلام حول الدور والتسلسل وغيره من الكلام، فماذا لدينا الآن فيما إذا أردنا أن نستفيد من التوحيد من أجل العالم المحيط بنا؟ في حين أنّنا لو رجعنا إلى **القرآن**، وأردنا أن نستفيد التوحيد منه، [نجد] أنّ **القرآن** قد بيّن لنا الأبعاد والظواهر والهيكليّات المختلفة لهذا الجسم وهذا الهيكل الذي هو بناء التوحيد ضمن مئات الآيات وبأفضل بيان وأبلغ الأساليب؛ وعندها يُعلم ما هي الحياة التوحيديّة ومَن هو الإنسان الموحّد.

وعلى كلّ حال، فإنّ هذا هو أحد الأقسام المرتبطة بهذه الآيات وينبغي النظر إلى الآيات التوحيديّة بالمزيد من التدبّر، وأنا سوف أفسّر لكم بضع آيات في وقتنا هذا.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾، الحديث هنا عن القيامة، ذاك اليوم الذي

يُجمع فيه الخلائق. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾، هذا الخطاب المهيمن والممتزج باللهجة المعاتبة يوقف الجميع: الذين أشركوا، وشركاءهم المختلَقين الذين جعلوهم أندادًا ومنافسين وخصومًا لله. ﴿مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾، أي فصل الله تعالى بين هؤلاء جميعًا.

وعندها سوف تفهمون، وبمجرّد النظر العاديّ والسطحيّ، أنّ هؤلاء الشركاء وأولئك الذين اختيروا لمشاركة الله هم يوم القيامة، غير ذلك الهُبَل العقيقيّ الفاقد للعقل والروح - فهو لا يُحشر هناك لأنّه لا يدخل ضمن البشر بحسب القول المعروف والمتعارف حتّى يُؤتى به ويُقال له ابقَ مكانك، وتوقّف، أو مناة أو اللات. فمناة كان صنمًا مخصوصًا، يشبه تمثال بنت، أو أحد الملائكة على سبيل المثال، وإنّ اللات تجسيمٌ لملاك آخر، وهكذا كان هُبل والعُزّى. الحديث لا يدور حول هذه الأصنام الجامدة، أو الأوثان الفلانيّة التي كانت توضع في ذلك المعبد الرومانيّ أو اليونانيّ، وليس الحديث عن ذلك العجل[٣١] الذي يُعبد في أرض الهندوس، بل إنّه حديثٌ عن ذلك الإنسان الذي اختاروه للشراكة والندّيّة مع الله؛ هنا، لهؤلاء يُقال: قفوا مكانكم!

إنّ أوّل خطاب توبيخيٍّ ينفي قدرة الآلهة المعبودة من دون الله بشكل واضح يوم القيامة هو هذا الخطاب. توقّفوا! فانظروا كم سيكون لهذا الأمر من أثر يوم القيامة. إنّه يخاطبنا أنا وأنتم بهذا النحو ويقول: إنّ ذلك الندّ الذي قد جُعل لله من قبل العرب أو العجم المشركين، سواءٌ كانوا من الإيرانيّين أو الروم أو الأحباش أو الهنود أو المصريّين، فإنّ هذا الندّ المُتخيَّل والمجعول كمنافس أو شريك لله، سيكون وضعه على هذا النحو يوم القيامة. فهو وأتباعه سيُحشرون في زاويةٍ ويُقال لهم قفوا مكانكم بخطابٍ

(٣١) دينٌ راج في إيران القديمة وبين أقوام الهندوآريّة. وقد تمّ تعديل هذا الدين في إيران بواسطة زردشت، والنار في هذا الدين هي رمز الطهارة.

مليء بالعتاب والنقمة الإلهيّين.

﴿فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ﴾، أي جعلنا بينهم فاصلةً. ﴿وَقالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ﴾، يتوجّه الشكّاكون والأنداد المختلَقون بكلّ كفران وإنكار إلى أتباعهم ويقولون لهم إنّكم لم تكونوا تعبدوننا في الدنيا؛ مثلهم كمثل المتّهم الذي يتشبّث بأيّ كلام ووسيلة من أجل أن ينفي التهمة عن نفسه. وهذا شبيهٌ بذلك الحوار الذي قرأناً ما يرتبط به من آيات سابقًا، وكذلك بحوارات أخرى وُجدت في **القرآن**. ﴿وَقالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدادًا وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٣٢]، فتلك الجماعات التي كانت تتبادل الضلالة ستتنازع وتتخاصم يوم القيامة وتصطفّ كلّ جماعة مقابل الأخرى. فذاك الذي أشرك بالله واتّخذ الشركاء يريد أن يمسك ذلك الشريك ويطرحه أرضًا ويقول له: إنّني قد اتّخذتك من دون الله، وها قد حلّ بي ما حلّ من مصائب. وذاك الذي عُبد في الدنيا، فإنّه يكون مستعدًّا للبراءة والتنكّر التامّ من كلّ أتباعه ومحبّيه في الدنيا لأجل تبرئة نفسه، فيتبرّأ منهم وينفر.

﴿ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ * فَكَفى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ﴾[٣٣]، وهكذا الأمر على لسان الشركاء، فإنّهم يقولون: إنّ الله يكفي للشهادة بيننا. ﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ﴾، فنحن لم نكن ملتفتين أبدًا أنّكم جعلتمونا في محلّ العبوديّة مقابل الله، هذا هو كلام أولئك الشركاء.

﴿هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ﴾[٣٤]، آنذاك ستُختبر كلّ نفس وكلّ إنسان بما أسلف وأنجز؛ فهناك سيُختبر ما قام به من أعمال في الدنيا، وتُفحص من قبل صاحبها. ﴿هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ

(٣٢) سورة **سبأ**، الآية ٣٣.

(٣٣) سورة **يونس**، الآيتان ٢٨ و٢٩.

(٣٤) سورة **يونس**، الآية ٣٠.

مَوْلاهُمُ الْحَقِّ﴾، الرجوع سيكون إلى الله الذي هو الوليّ الحقيقيّ للجميع.

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾، هناك يختفي ويزول كلّ شيءٍ من البهتان والافتراء الذي فعلوه أو قالوه، فتُنسى كلّ الأشياء التي كانت في قلب الإنسان بعنوان الدوافع لطاعة غير الله. فيفقد الإنسان كلّ الأشياء التي كانت في قلبه بصورة حجج وأعذار لعبوديّة غير الله؛ وهكذا تُنتزع من الإنسان [تلك الحجج] التي كانَ يظنّ بأنّها ستكون حربةً بيده يوم القيامة. يصطنع أحيانًا، ولأجل شركة واتّخاذ الشركاء، عذرًا أو مبرّرًا فيجعله محاطًا بالأفكار والخيالات والآراء التي تتشكّل بها تلك الأعذار! هذه الأعذار التي يجعلها مبرّرةً وشرعيّةً. ويوم القيامة الذي هو يوم المحكمة، عندما يريد هذا الإنسان أن يعدّد هذه الأعذار: العذر الأوّل والثاني والثالث والرابع والخامس، فإنّه يرى أنّها قد اختفت بالكامل، ولم تكن سوى جُزاف وخراب وباطل.

والاحتمال الآخر لمعنى هذه الآية هو أنّ الإنسان يفترض في هذه الدنيا أشياء تدعمه ويستند إليها، تلك الأشياء التي يعبدها، تلك الأمور التي يطيعها ويتعبّد بها ويقبل بقلبه عليها، إلّا أنّها يوم القيامة لن تتمكّن من أن ترفع عن كاهله أيّ وزرٍ أو ثقل مهما كانت حميمة أو حامية أو داعمة، يا لهذا المسكين! ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

التفتوا إنّ استدلالات **القرآن** هي على هذا النحو: يثبت حينًا المطلب من جهةٍ أو من زاويةٍ من زوايا القضيّة؛ وحينًا آخر، لا يستدلّ **القرآن** بصورةٍ مباشرة، بل يؤمّن للإنسان مجال الاستدلال الفكريّ. وهنا في هذا المجال، يريد الله تعالى أن يثبت من خلال هذه الآيات أنّه لا ينبغي إطاعة غير اللّٰه والعبوديّة له، فيدخل من هذا الطريق: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾[٣٥]، وقوله من السماء يشير إلى غيث الحياة وإلى

(٣٥) سورة **يونس**، الآية ٣١.

كلّ ما يمنحها، ومن الأرض مواد الحياة، ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ﴾. لا تخلطوا بين السمع والأذن، فنحن نسمّي هذه الجارحة الخاصّة باللغة الفارسيّة «گوش» ونقول باللغة العربيّة «أذن»، أمّا السمع فهو حالة وقدرة إدراك الأصوات، وإذا ذُكر هذا [العضو] فيكون بذاك الاعتبار، فلو قُطعت أذن شخص مثلًا لا يُقال إنّه قد قُطع سمعه بل يُقال قد قُطعت أذنه، فاسم هذه الجارحة الخاصّة ليس السمع. وكذلك البصر، فهو ليس بمعنى هذا العضو المعيّن والخاصّ الذي نسمّيه «العين» بل هو الرؤية والبصر، بل هي الروح، وذاك هو العضو الجسمانيّ. وإذا قيل لهذا العضو بصر، فذلك باعتبار امتلاك العين له.

وعلى سبيل المثال، لا يُقال للعين العمياء بصر، ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصار﴾، فإنّ من بيده ملكيّة قوّة السمع والبصر ومالكها هو الله، أليس هو من يمنحكم هذا الإدراك والفهم والقوّة؟ ومن الذي يستطيع أن يسلبها منكم؟ ففي الحقيقة هذه الآية تشير إلى امتلاك البصيرة، وإلى امتلاك قوّة الفهم والعقل، وتقول للإنسان: طالما أنّه من المقرّر أن تفكّر الآن وستجيب عن هذا السؤال، فأنت تمتلك السمع والبصر.

﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾، إخراج الحيّ الظاهريّ من الميّت الظاهريّ. عندما تموت المرأة وهي حامل مثلًا، ويبقى وليدها حيًّا، فيُقال أنّهم أخرجوه من أمٍّ ميتة؛ والاحتمال الآخر هو جعل الحياة من نطفة ميتة أو جسم ميّت أو أيّ شيء ليس فيه حياة. [فكما يحصل] إحياء أرض الموات وتبديل أرض هي ميتةٌ - بالرغم من أنّها كنزٌ لآلاف المواد الحيّة والمانحة للحياة - وإخراج الحياة منها؛ فكذلك نفعل بكم أيّها الناس. فما هي المواد الأساسيّة والجذور الأوليّة للبشر؟ أليست سوى تلك المواد الحياتيّة والغذائيّة التي توجد في الأرض؟! فقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ فيه عدّة احتمالات، كلّها قابلةٌ للقبول.

فمَن الذي يفعل ذلك؟ أي يخرج الطفل الميّت من بطن الأمّ الحيّة؟ أو

يخرج هذا الإنسان السيّء وصاحب الروح الميتة من الإنسان الحيّ ومن له روحٌ حيّة، ومن هذا القبيل! يوجد عباراتٌ واحتمالاتٌ تأتي على ذهن الإنسان. وعلى كلّ حال، فإنّ مظهر كمال قدرة الربّ المتعال هو هذا، هو أن يخرج شيئًا حيًّا من شيءٍ ميّت، ويخرج شيئًا ميتًا من شيءٍ حيّ؛ فهذا علامة كمال القدرة والقبضة المقتدرة لقدرة الله.

﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾، فمَن الذي يدير ويدبّر الأمر التكوينيّ للعالم؟ ومن الذي جعل قوّة الجاذبيّة هذه في الأرض، لكي يتمكّن الإنسان من الحياة عليها؟ ومن الذي أودع في الأرض وفي البحر وفي الجبل كلّ هذه الاستعدادات للحياة؟ ومن الذي يستخرج من الإنسان هذه القوّة؟ ومن الذي جعل هذه الشمس والقمر والنجوم والمجرّات البعيدة والأبعد بكلّ هذا النظم والترتيب المدهش؟ ومَن الذي جعل القمر على هذا البعد المحدّد من الأرض؟ فلو كان أبعد من ذلك لما كانت حياة الإنسان ممكنةً على الأرض لأنّ ذلك كان سيؤدّي إلى أن تعوم الأرض بمياه البحار، وسيغور سطح الأرض في الأعماق. ومَن الذي جعل الشمس على مسافة معيّنة من الأرض؟ فلو أنّها اقتربت أكثر من ذلك إلى الأرض لما كانت الأرض قابلةً للعيش بسبب الحرّ، ولو بعُدت أكثر لما أمكن للإنسان أن يسكن فيها بسبب البرد؛ وهكذا.

فماذا نقول الآن بشأن حكمة الله وقدرته؟ لقد امتلأت الكتب، في قرننا هذا أي القرن العشرين، حول هذه الأمور ممّا كتبه علماء العلوم التجريبيّة في العالم، إلى الدرجة التي لو أردت أن أذكرها فسأحتاج إلى أيّامٍ عديدة لنقلها.

﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾؟ هذا هو السؤال، وبالرغم من أنّه يخاطب المشركين في زمان نزول الوحي، إلّا أنّه يخاطبنا أنا وأنتم في القرن العشرين. ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾، فمن الذي يدبّر كلّ هذا العالم من أعماق الذرّات إلى أبعد العوالم، وكلّهم في قبضة قدرته؟ أجيبوا دون تعصّبٍ أو غرضٍ، وفكّروا

ببصيرة لتعرفوا الجواب الواقعيّ. ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّه﴾. بعض الناس لم يفكّروا وقالوا ﴿اللَّه﴾ لأنّ عقيدتهم في ذلك الزمان كانت هكذا. وأنا إذا فكّرت قليلًا ودقّقت أقول «الله». فهذا الانتظام العجيب لعالم التكوين ليس إلّا من الله لا غير، فهي يد قدرته التي تدير الأفلاك وكلّ ما نشاهده ونراه بهذه العين الباصرة، والعين غير المادّيّة. وما لا نراه اليوم ولكن سنراه بعد عشرات السنين بسبب تطوّر العلم، لن يكون سوى آثار ومظاهر قدرة الله وليس شيئًا آخر، ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّه﴾.

حسنٌ، حيث أنّه الله؛ ﴿فَقُل﴾ أي يا نبيّنا، ويا مبشّر دعوتنا، ويا أيّها المسؤول عن كمال الإنسان، حاججهم وقل ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾. فماذا يعني ذلك؟ لماذا لا تتّقون هذا الربّ العظيم؟ ولماذا تطيعون غيره، وتجعلون له شركاء في العبوديّة؟ انظروا، إذا كان تدبير العالم التكوينيّ بيده، فلماذا لا يكون التدبير التشريعيّ للعالم بيده؟ لقد كنت أفسّر سورة تبارك في أحد الأيّام في ذلك المسجد، هل تتذكّرون؟ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٣٦]، ثمّ بدأنا ببيان كيفيّة تكوين العالم والسماوات والأرضين وأمثال هذا الكلام، ولكن ما هي بداية كلّ ذلك؟

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾، فالملك يعني الحكومة، ويعني أنّ القدرة بيده. فأيّة قدرة؟ إنّها قدرة التكوين بالنسبة له، وقدرة التشريع أيضًا. فالذي يدبّر تكوين العالم، لماذا يوكل أمر تشريعه إلى شخص آخر؟! وكلّ مَن سواه هو مخلوقٌ له ومصنوعٌ من قبله. فالذي أوجد كلّ هذه القوانين والسنن الطبيعيّة في العالم وفي الإنسان وخلقها؛ فلماذا يوكل أمر جعل التشريعات والقوانين المدنيّة والجزائيّة وغيرها لأولئك الضعفاء أصحاب العقول الناقصة والعلوم المحدودة والإرادات الضعيفة، أمثال البشر والبشر

(٣٦) سورة **الملك**، الآيتان ١و٢.

العاديّين؟ لماذا؟ لماذا لا يدير المجتمع بنفسه؟ ولماذا لا يضع القوانين من عنده؟ ولماذا لا يعيّن سلطة حفظ القانون وحمايته بنفسه؟ ولماذا لا يجعل الإمامة والولاية؟ ولماذا لا يجعل الإمام؟ ولماذا لا يجعل الوليّ من قبل الله؟ ولماذا يوكل أمر ذلك كلّه إلى العقول الناقصة للناس؟ لماذا؟ ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾[٣٧]. وقد قلت بأنّني لن آتي على ذكر الآيات اللاحقة لأنّها ليست محلّ بحثنا الآن.

ثمّ يصل الكلام إلى الآية الرابعة بعد ذلك. ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾، يا رسولنا! قل لهم تحت عنوان الإرشاد والتعليم، هل من شركائكم من يهدي إلى الحقّ؟ هل من الشركاء المختلقين الذين جعلتموهم لله، وتصوّرتموهم لله مَن يهدي البشر إلى الحقّ؟ فهل لديكم أيّ أحد هنا؟ ومن المسلّم - أقول من المسلّم أي على نحو الاطمئنان والاحتمال القويّ - أنّ المقصود هنا ليس تلك الأصنام وتلك الأحجار والأخشاب وأمثالها؛ فلا يوجد أحدٌ يحتمل بشأنها الهداية وتوجيه الناس. حسنٌ، فكيف تهدي؟ لذا من الواضح أنّ المقصود هنا هي تلك الأصنام الحيّة، أولئك الذين كان لهم قدرةٌ من القدرات وسلطةٌ من السلطات، أو مذهبٌ، أو دنيا، كما بيّنّا في تلك الأوراق اللاحقة، مثل فرعون، أو مثل شُريح القاضي في زمانه، أو أيّ شخص آخر في هذا المجال.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾، يعود الكلام إلى إيجاد ذاك الذي جعله الناس ندًّا وشريكًا ومنافسًا لله، فماذا سيكون جواب المشركين هنا؟ فمن الممكن أن يجيبوا قائلين: بلى، إنّ هؤلاء الذين اخترناهم وجعلناهم هم تجسيمٌ للحقّ؛ وليست الهداية بشيء بل هم أعلى من الهداية. لهذا، فإنّه تعالى لا ينقل جوابهم، فهم يخطئون عندما يعتقدون أنّ لله شركاء في الهداية، وأنت أجب بنفسك و﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ فهو الذي يهدي الناس والعقلاء إلى الحقّ، لماذا؟ لأنّ الله هو الذي خلق الحقّ،

(٣٧) سورة **يونس**، الآية ٣٢.

وهو العالم بدقائقه، وهو يدعو الناس إلى الحقّ، وكلّ من كان مقابل الله فهو مقابل الحقّ أو يدعو إلى شيءٍ مقابل الحقّ، ولا يوجد مَن يدعو إلى الحقّ غير الله.

حسنٌ، لقد عُلم الآن أنّ الله يدعو إلى الحقّ وأنّ أنداده المختلقين لا يفعلون ذلك، ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾، وهذا استنتاجٌ ينبغي أن يحصل بعقل الإنسان وذكائه الموهوبَ. ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ﴾ فهل يوجد مَن هو أكثر لياقة ممّن يدعو ويهدي إلَى الحقّ للاتّباع؟ ﴿أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى﴾، أم ذاك الذي لا يعرف الطريق إلّا أن يؤخذ بيده؟! فَمن الَذي ينبغي أن يُتّبع في النهاية؟ أليس هو الله الذي خلق الحقّ ودعا وهدى إليه؟! أم أنّنا نتّبع من إذا أراد أن يصل إلى الحقّ، فإنّه يحتاج إلى مَن يمسك بيده ويهديه؟! وكما نقول في الشعر: إنّ الأعمى هو الذي يحتاج إلى العصا لكي يمشي[٣٨]، فهل يريد أن يهدينا ويدلّنا؟ إنّه مضطرٌّ لأن يُهدى ويحتاج إلى من يهديه. والآن من الذي يجري الحديث عنه برأيكم؟ أهو ذاك الشريك الذي يمكنه هداية الناس؟ أم ذاك الذي لا يمكنه والذي إذا أراد أن يهتدي، فإنّه يحتاج إلى مَن يمسك بيده؟ فكيف يكون مثل هذا الشريك؟ وأيّ نوع من الموجودات هو؟ فهل المراد هنا بقرة الهندوس أو عبدة الأبقار؟ أو تلك الأصنام التي كان مشركو قريش وغيرهم يعبدونها؟! أو المراد نيران المزدكيّين[٣٩] المقدّسة؟ أو الزردشتيّين؟ أو المراد تلك الأصنام والمجسّمات التي توضع داخل كنائس اليهود، أو في معابد الرومان واليونان؟! من المسلّم أنّ المقصود ليس كلّ هذه الأشياء. فالمقصود هنا هو ذاك الذي يدّعي الهداية والقيادة، ويدّعي أنّه يمكنه أن يوصل المجتمع إلى سعادته.

---

(٣٨) جاهل برو ز مرشد بى معرفت چه فيض كورى كجا عصا كش كورى دگر شود (كليم كاشاني).

(٣٩) طقس رائج في إيران القديمة في وسط الأقوام الهندوآريّة، وتغيّرت بعد مجيء الزرشتيين، حيث يعتبرون النار رمزًا للنقاء.

فالقرآن يريد أن يقول إنّ اللّه هو الذي يوصل الإنسان إلى السعادة، وأنّ اللّه هو الذي يمنح الإنسان منبع الحقيقة ويوصله إلى الحقّ؛ أمّا الذين لا يمتلكون من أنفسهم شيئًا لأنفسهم فإنّهم غير قادرين على ذلك، ﴿أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ﴾، أي أيّها الناس الذين لا تفكّرون ولا تدركون، كَيف تَحكمون؟ وكيف تمنحون ما سوى اللّه الميدان والمجال؟! هذه كلمةٌ حول التوحيد.

فنفي العبوديّة لمدّعي الألوهيّة وأشكال الآلهة وكلّ من اتّخذوهم أربابًا وأسبغوا عليهم صبغة الربوبيّة، تلك الموجودات التي هي الأصنام البشريّة عبر التاريخ؛ نفي العبوديّة لتللك الأرباب سواء كانت بلباس السلطات الدينيّة وبين قوسين: «الأحبار» و«الرهبان»، أو بلباس السلطات الدنيويّة وبين قوسين: «الطاغوت»، «الملأ»، «المترف».

وفي اقتراح الإسلام على أهل الكتاب، جاء نفي الطاعة للقوى غير الإلهيّة في تلك الآية بهذه الصورة: ﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضًا أَرْبابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فتأملّوا أنتم بأنفسكم.

الجلسة الحادية عشرة: روح التوحيد ونفي العبوديّة لغير الله
الأحد، ١٢ رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجريّ شمسيّ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٤٠].

(٤٠) سورة **الأنعام**، الآيتان ١١٤ و١١٥.

مهما فكّرنا فإنّنا لا يمكن أن نتجاوز بحث التوحيد بهذه السهولة، فهو أوّلًا أساس الاعتقادات. وثانيًا هو أصلٌ عمليٌّ مهمّ على الصعيد الفرديّ والاجتماعيّ. وثالثًا، إنّ الأمّة المسلمة الموحّدة لا تعلم عنه إلّا أقلّ القليل، بل يمكن القول إنّها لا تعلم عنه شيئًا. هذا، وإن كانت المدارس المحلّيّة تعلّم الأطفال أنّ اللّه واحدٌ وليس اثنين، ولكنّ أغلب الموحّدين لا يعرفون شيئًا صحيحًا عن الوجهات المختلفة للتوحيد إلى أن يبلغوا آخر العمر ويوشك بهم الارتحال عن هذا العالم. بناءً عليه، من الجدير أن نتحدّث أكثر حول قضيّة بهذه الأهميّة بسبب قلّة اطّلاع الناس عليها.

نلاحظ أنّ آيات **القرآن** أيضًا تتناول قضيّة التوحيد بكلّ هذه السعة أو بمستوى هذه الأهميّة وفي موارد كثيرة وبأساليب مختلفة. وسوف نأتي بشواهد عديدة من الآيات القرآنيّة الكريمة حول هذا الأصل الاعتقاديّ والعمليّ المهمّ، وبنماذج عدّة لتوضيح هذا المطلب المرتجى. وسوف نتناولها بالمزيد من الشرح.

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، وبعد عدّة آيات، يأتي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[٤١].

خلاصة المطلب في مجال القضيّة التي نتناولها هي أنّ هناك من يُعبد باعتبار أنّه مقدّسٌ وأنّه ذو قدرات تفوق عالم الطبيعة، كتلك الأصنام أو القدّيسين الذين عبدهم الناس عبر التاريخ؛ فما يرد إلى الذهن ابتداءً من موضوع العبادة هو هذا المطلب. ونحن عندما نقول إنّ عبادة اللّه واجبةٌ،

(٤١) سورة **الأنعام**، الآية ١٢١.

فإنّنا نأخذ بعين الاعتبار قضيّة التقديس هذه وتلك الحالة من التعظيم الروحيّ والقلبيّ؛ مثلما يفعل المسيحيّون تجاه المسيح عليه السلام أو أمّه الطاهرة مريم، حيث يضفون عليهما نوعًا من القداسة ويركعون للتماثيل المنحوتة للمسيح أو مريم ويبكون ويعبدون؛ وهذا هو الرائج العامّ حول العبادة.

ويوجد معنًى آخر غير هذا المفهوم، أو فلنقل، يوجد زاويةٌ أخرى يمكن أن يُطلق عليها عنوان العبادة، وقد استُعمل هذا المعنى في **القرآن**. كأن يعبد النّاس موجودًا أو إنسانًا بهذه الصورة من الطاعة، فهذا يُعدّ نوعًا من عبادة غير الله. وحاصل الكلام: إنّ العبادة ليست منحصرة في قيام الإنسان بالانحناء والركوع والسجود لموجودٍ معيّن بحالةٍ من التقديس والتعظيم القلبيّ وبمناجاته والثناء عليه، وبرفع اليدين نحوه بضراعةٍ وخضوع. هناك أعمالٌ أخرى أيضًا يمكن أن نطلق عليها عنوان العبادة، ونحن لا نقولها لكي لا نثقل على أنفسنا.

بناءً عليه، يوجد للعبادة مفهومٌ أوسع في ثقافة **القرآن** يجب علينا أن نكتشفه؛ هذا فيما لو أردنا أن نعبد الله ولا نعبد سواه. أي إنّنا لو أردنا أن نكون موحّدين ونتّبع أصل التوحيد، فعلينا أن نراقب بدقّة أنفسنا كي لا نقوم بالعبادة التي هي من النوع الثاني والتي هي لغير الله ربّ العالمين؛ أي ذاك الشيء الذي يقوم به أكثر الموحّدين في العالم، رغم أنّه بظاهره ليس تقديسًا لغير الله. فهم لا يسجدون لتلك الأشياء أو الأشخاص غير الله، لكنّهم مع ذلك يعبدون غير الله في العمل وفي الفكر وفي القلب وفي الروح، بالمعنى الثّاني.

فما هو المعنى الثاني للعبادة؟ إنّ المعنى الثاني للعبادة سهلٌ جدًّا وبسيط، وله في اللغة الفارسيّة لفظٌ، وهو بحسب الرائج في اللغة والجاري على الألسن عبارة عن الطاعة. فلو أطعت أيّ إنسان بصورة مستقلّة وبدون قيدٍ أو شرط، وتتبّعت أوامره وأحكامه جسمًا وروحًا وقولًا وعملًا، تكون قد

عبدته. فمن أين لنا هذا الكلام؟ إنّنا نذكر هذا الكلام بالاستناد إلى آيات **القرآن** الذي بيّن لنا أنّ العبادة هي الطاعة. فعندما دخل عُديّ بن حاتم الطائيّ[٤٢]، المعروف بمقامه ودرجته التي كانت تفوق درجة أبيه، المدينة في بداية إسلامه أو لعلّه قبل عدّة أيّام من إسلامه، وقد كان من المقرّر أن يقرأ الرسول الأكرم - عندما رأى زُنّارًا[٤٣] قد علّق صليبًا على رقبته - هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْبابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهًا واحِدًا﴾. ومعنى هذه الآية هو أنّ المسيحيّين واليهود اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم، أي علماءهم وزهّادهم والمسيح ابن مريم أربابًا وآلهة؛ في حين أنّ الله تعالى قد أمر بأن لا يُعبد إلّا الإله الواحد. وعندما وصلت هذه الآية إلى سمع عُديّ بن حاتم، أقبل قائلًا: يا رسول الله، إنّ هذا الكلام ليس صحيحًا! فنحن لم نتّخذ أحبارنا ورهباننا أربابًا! ومتى عبدناهم؟ معترضًا بذلك على النبيّ وعلى هذه الآية القرآنيّة، لأنّه لم يكن في ذهنه سوى هذا المعنى من العبادة وهو الموجود الآن في أذهانكم. لقد كانوا يعبدون أي يتوسّلون ويناجون، وهي الحالة المتلازمة مع التقديس إمّا قلبًا وإمّا قلبًا ولسانًا، وإمّا قلبًا ولسانًا وبدنًا، كالصلاة؛ فلأنّ عُديّ بن حاتم قد فهم العبادة بهذا المعنى، اعترض عندما فهم من الآية القرآنيّة المعنى الأوّل، يعبدون عبّادهم وزهّادهم ويجعلونهم أربابًا؛ فقال: كلّا، هذا الكلام ليس صحيحًا، نحن المسيحيّون لم نعبد أحبارنا ورهباننا في أيّ وقت.

وفي جواب عُديّ بن حاتم على تصوّره ذاك، يقول الرسول الأكرم: أجل، إنّكم لم تسجدوا لهم - أذكر لكم مفاد قول النبيّ - ولكنّكم قبلتم كلّ ما قالوه دون قيدٍ أو شرط، مع أنّهم أحلّوا حرامًا وحرّموا حلالًا. وأنتم وبدون أن تكونوا بصدد فهم واقع القضيّة، أطعتم كلّ ما قالوه لكم بدون قيدٍ أو

---

(٤٢) عُديّ بن حاتم الطائي المشهورة، الذي تسلّم رئاسة قبيلته بعد أبيه. وقد أسلم في السنة التاسعة للهجرة متأثّرًا بأخلاق النبيّ وسلوكه. وكان من محبّي أمير المؤمنين وأتباعه وشارك في حروب صفّين والجمل ونهروان، وقد قدّم ثلاثة من أبنائه في حرب صفّين. تُوفّي في العام ٦٧ للهجرة.

(٤٣) طائفة من المسيحيّين تضع صلبان على الصدور.

شرط، فهذه هي العبادة. فاتّخاذ أيّ موجود ربًّا هو هذا. وبالطبع، يوجد رواية عن الإمام الصادق (ع) أيضًا بهذا المضمون، ومن يرِد يمكنه أن يراجع **تفسير نور الثقلين** في ذيل هذه الآية[٤٤].

بناءً على الثقافة القرآنيّة، فإنّ عبادة أيّ موجود غير إلهيّ، سواءٌ كان هذا الموجود سلطةً سياسيّةً أو سلطةً دينيّة، أو كان عاملًا داخليًّا كنفس الإنسان وميوله النفسانيّة والشهويّة، وسواءٌ كان موجودًا خارجًا عن وجود الإنسان، ولكنّه ليس سلطةً سياسيّةً مركزيّة أو دينيّة، بل في مقابل امرأة أو مقابل أيّ شخص اعتقد المرء بعظمته من دون دليل، وسواءٌ كان صديقًا أو حبيبًا، فإنّ عبادة مثل هذه الموجودات والكائنات هو عبارة عن إطاعتها والانقياد لها. فكلّ مَن أطاع إنسانًا أو شيئًا فقد عبده.

أتلو عليكم روايةً في هذا المجال ليُعلم أنّ هذا من الثقافة القرآنيّة التي نجدها في جميع المصادر الإسلاميّة وخصوصًا المصادر الشيعيّة، أعمّ من **القرآن** والحديث، والرواية هي عن الإمام الجواد صلوات الله وسلامه عليه حيث يقول: «من أصغى إلى ناطق فقد عبده»[٤٥]، وهذا أوسع بكثير من دائرة العبادة، ولا ينحصر في إطار الطاعة، بل حتّى لو أنّنا أصغينا قليلًا بحواسّنا لأحدهم نكون قد عبدناه.

حسنٌ، أنتم ستقولون إذن نحن لا ينبغي أن نستمع إلى الكلام الصحيح! لهذا قال مباشرةً: «فإن كان الناطق يؤدّي عن الله عزّ وجلّ فقد عبد الله»[٤٦]. فلو أنّكم أصغيتم بأسماعكم وحواسّكم، وتوجّهتم بقلوبكم وأذهانكم وأفكاركم وأرواحكم، فإنّكم في مثل هذه الحالة تكونون قد عبدتم الله. «وإن كان الناطق يؤدّي عن الشيطان فقد عبد الشيطان»[٤٧]. فإذا

---

(٤٤) للمزيد انظر: الشيخ الحويزي، **تفسير نور الثقلين**، تصحيح وتعليق السيّد هاشم الرسولي المحلّاتي (قم: مؤسّسة إسماعليان، الطبعة ٤، ١٤١٢هـ/ ١٣٧٠ هـ.ش)، الجزء ١، الصفحة ٦٥٩.

(٤٥) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٦، الصفحة ٤٣٤.

(٤٦) المصدر نفسه.

(٤٧) المصدر نفسه.

كان هذا المتكلّم ينطق عن لسان إبليس ويتحدّث بكلام الشيطان ويبحث خلافًا للمنطق وفلسفة الفكر الإلهيّ، وأنتم تستمعون إليه بإذعان وإصغاء، تكونون في حالة قد عبدتم إبليس وأطعتموه، لأنّ [هذا المتكلّم] في الواقع هو شيطانٌ من الأساس. ولا نريد أن نقول إنّه ممثّل الشيطان أو بوقه، كلّا، هو الشيطان نفسه، بذاك المعنى الذي ذكرناه للشيطان وهو المعنى القرآنيّ أيضًا.

إنّ طاعة أيّ موجودٍ هي هكذا، حتّى لو لم يكن سلطةً سياسيّة أو حتّى سلطةً دينيّة، إذا كانت طاعة بلا قيد ولا شرط، فإنّها تصبح عبادةً له. فإذا أراد أحدٌ أن لا يعبد إلّا الله، أي يريد أن يكون موحّدًا في عبادته وفي توجّهاته، فينبغي أن يحصر طاعته المطلقة بربّ العالمين، بالربّ العظيم. ومن جملة الأشياء التي إذا اتّبعتها تكون عابدًا لها هو القانون؛ ومن جملة الأشياء التي إذا اتّبعتها تكون قد عبدتها هي النظم الاجتماعيّة، والسنن والتقاليد؛ فبأيّ قانونٍ نعمل؟ وهل ينبغي أن لا نعمل بالقانون؟ وهل يعني أن لا نعمل بالسنن والآداب، وأن لا نتبّع النظام والانتظام؟ كلّا، لكن اسعوا أن تكون كلّ هذه إلهيّةً لتكونوا في حالة الطاعة والتبعيّة عبيدًا لله ومشغولين في عبادته تعالى.

انظروا كم أنّ أفق رؤية الإنسان وسيعٌ، وانظروا كيف يمكن تفسير قضايا التاريخ بالنسبة للإنسان. فالأنبياء جميعًا إنّما بعثوا على أساس التوحيد، وسوف نبيّن هذا الأمر على أساس الرؤية القرآنيّة في البحث المرتبط بالأنبياء والمختصّ بالنبوّة. فجميع الأنبياء الإلهيّين العظام أرادوا أن يجعلوا الناس موحّدين؛ فمن هم الموحّدون؟ وماذا يعني أن يكونوا كذلك؟ يعني أن يضعوا سلاسل وأغلال طاعة غير الله من أعناقهم، وقد صرّح **القرآن** نفسه بهذا المعنى في موطنٍ حيث يقول: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾، فهذا هو هدف الأنبياء.

وعندما يتمّ النظر إلى التوحيد بهذا المنظار من خلال هذه الزاوية،

ستجدون أنّه فكرٌ وأصلٌ للحياة ويرتبط بالنظام الاجتماعيّ وبتوجّهات البشر في جميع الأحوال، كما يرتبط بكيفيّة عيش المجتمعات البشريّة. فهل ترون كم يتفاوت هذا التوحيد مع توحيد «أنّ اللّه واحدٌ وليس اثنين»، هذا التوحيد الجافّ، الفاقد للروح، والجاهل! فالتوحيد هو هذا. وأنا قد وجدت في الآيات القرآنيّة موارد كثيرة، لو أردت أن أذكر جميع الشواهد التي يُستفاد منها لهذا المعنى بشكلٍ واضح في **القرآن** وأطرحه هنا، لاحتاج ذلك الوقت الكثير، وقد أحضرت موردين منها، أو نموذجين من الشواهد التي يمكن بسهولة القول بأنّ طاعة غير اللّه وعبادته وتوحيده الخالص وروح الدين وأساسه هو عبارة عن أن يحصر المرء طاعته باللّه ولا يتّبع إلّا برنامجه ونظامه وتشكيلاته. كما يمكن أن تراجعوا **القرآن** على هذا الأساس الفكريّ والوقوف على الآيات التي تتحدّث عن هذا الموضوع.

ارجعوا إلى **القرآن**، واسعوا لمعرفته والأنس به ولأن لا تكونوا محتاجين لأن آتي أنا وأفسّر لكم الآيات. قرّبوا أنفسكم من هذا الكنز اللامتناهيّ والبحر الذي لا حدّ له. أنا قد أوصيت بهذا مرارًا، وكلّما كنت أكرّر هذه التوصية أشعر أنّ هناك ثقلًا أو حملًا على عاتقي. أشعر بالتكليف لأن أقول لكم إنّه من الضروريّ أن ترجعوا إلى **القرآن**، فهذا البحر العظيم والمحيط الذي لا ساحل له على نحو ما يُقال، هو بحرٌ من أيّ النواحي أتيته[٤٨]؛ فأينما وليّتم وجوهكم إليه سوف تستفيدون منه؛ وكلّ من جالس القرآن ستحصل له استفادةٌ ما. فليكن لديكم هذه الأصول حتّى تتمكّنوا من فهم هذا المحتوى ولو بشكلٍ مختصر، وعلى أيّ نحوٍ، وبأيّ أسلوب. وكلّما راجعتم أكثر اتّضح لكم المطلب أكثر فأكثر.

يقول أمير المؤمنين، صلوات اللّه وسلامه عليه، بما يشبه هذه العبارة كما نُقل عنه في **نهج البلاغة**: «ما جالس أحد هذا القرآن إلّا قام بزيادةٍ أو

---

(٤٨) هو البحر من أيّ النواحي أتيته — فلجّته المعروف والبرّ ساحله.
او درياست از هر طرف كه به سويش آيى — وامواجش نيكى وكران هايش احسان است

نقصان، زيادة في هدًى أو نقصانٍ من عمًى»[٤٩]، والزيادة في الهدى تشير إلى تقدّمه أكثر، والنقصان من عمًى يشير إلى العمى الروحيّ والإدراكيّ والباطنيّ. فانظروا إلى ما يقوله أمير المؤمنين بهذا البيان حيث يبدأ: «ما جالس أحد هذا القرآن»، وقوله: «أحد»، يشير إلى العموم والإطلاق.

ولماذا أذكّر بهذا المطلب فيما يتعلّق بالقرآن؟ ذلك من أجل أن تعلموا أيّها الإخوة والأخوات أنّه يوجد أفخاخٌ كثيرة وأدوات لا تُحصى من أجل إبعاد الناس عن **القرآن**؛ وكلّها قد أعدّت على مرّ الزمان. وأحد تلك الأعذار والأفخاخ والوسائل التي ما زالت إلى يومنا هذا، وما زال بعض الجاهلين والمغرضين يكرّرونها لحدّ الآن، هي أن يقال: يا فلان إنّه لا يمكن لأحد أن يفهم **القرآن** سوى الأئمّة، صلوات الله عليهم، فيمكنني أن أجيب بكلمة واحدة عن هذه الجملة، كما قال أمير المؤمنين، صلوات الله عليه، بشأنٍ ما قالته الخوارج في النهروان: «كلمة حقّ يُراد بها باطل»[٥٠]. ذاك كلامٌ صحيح لكنّ مقصود القائل هو مقصدٌ رذيلٌ ومؤذٍ.

أجل، إنّ أئمّة الهدى محيطون **بالقرآن**، ولا يمكن تصوّر شيءٍ أعلى من ذلك؛ فلهم تلك الأرواح والعقول والأفكار السامية والعظيمة، والقرآن في قبضتهم، بل هم أنفسهم قرآن، كلّ واحدٍ منهم هو كذلك، فلا شكّ في ذلك ولا كلام؛ لكن أن نقول إنّ الإمام يعلم **القرآن** بصورة ممتازة بينما أنا العبد وأنت يا صاحب الجناب العالي لا يمكن أن نفهم كلمةً واحدةً منه وأنّه لا يمكننا أن ندرك طبقةً أو قشرًا من **القرآن**! صحيح أنّ أئمّة الهدى عليهم الصلاة والسلام كانوا يعلّمون **القرآن**، لكنّ مقصود القائل ليس أن يرفع الإمام، إنّما مقصوده أن يبعدك عن **القرآن**؛ هو كذلك الرجل الذي قيل له: صلّ؛ فقال: يا أيّها السيّد، إذا كانت الصلاة هي تلك التي يصلّيها

---

(٤٩) علي بن محمّد الليثي الواسطي، **عيون الحكم والمواعظ**، تحقيق الشيخ حسين الحسيني البيرجند (دار الحديث، الطبعة ١، لا تاريخ)، الصفحة ٤٧٨.

(٥٠) خطب الإمام علي (ع)، **نهج البلاغة**، شرح الشيخ محمّد عبده (قم: دار الذخائر، الطبعة ١، ١٤١٢هـ/ ١٣٧٠هـ.ش)، الجزء ١، الصفحة ٩٢.

مولاي عليّ، فلماذا أصلّي أنا؟ قال:

گر نمــاز آن بود مظلــوم كــرد	ديگران را زين عمل محروم كرد
ليست حقيقة الصلاة سوى لعليّ	والكلّ من هذه الصلاة محرومون

هذا المنطق هو ذاك المنطق نفسه، فإذا كانوا هم يفهمون **القرآن** فقط فلماذا أنا وأنتم نفتح دفّتَي **القرآن**؟! فيا أيّها المسكين! ويا أيّها المحروم من المعارف القرآنيّة! واأسفاه على حالك! واأسفاه على حالك! واأسفاه على حالك! فأنت لا تفهم **القرآن**، ولكن الأسف الأكبر على حالك إذا كنت أنت نفسك لا تفهم ولا تدع الناس يفهمون ولا تسمح للعُطاشى أن يرتووا من هذا المنبع الفيّاض والفوّار! واأسفاه على حالك! واأسفاه على حال أولئك الذين تبعدهم عن **القرآن** وتصدّهم عنه لأسبابٍ وأعذار مختلفة ولا تترك الناس يفتحون **القرآن** من أجل أن يفهموا! واأسفاه على حالهم!

وأنتم أيّها الإخوة والأخوات عليكم أن تعلموا أنّ عملنا يجب أن يكون مع **القرآن** مثلما قال رسول الله: «فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن»[٥١]، فمتى هو ذاك اليوم؟ ألا ترون الفتن المظلمة كقطع الليل؟ ألا تشاهدون الطرق البديلة التي تُعرض أمام الأعين العمياء والأعين القاصرة؟ ألا ترون قطّاع الطرق من كلّ جانب وبأشكالٍ مختلفة بأعينكم الباصرة؟ إذن، متى يحين الوقت ويأتي الزمان الذي نَرجع فيه إلى **القرآن**؟ وإلى متى؟ إلى حين مجيء إمام الزمان صلوات الله عليه، وهو **القرآن** الناطق؟ إنّ اليوم هو يوم الرجوع إلى **القرآن**. وشرطه الأوّل أن نفهمه.

لقد وجدت قسمين من الآيات المرتبطة ببحثنا، وعليكم أنتم أن تفتّشوا لتجدوا الأقسام العشرة الباقية. أوصي الإخوان وأولئك الذين يمكنهم أن يفهموا **القرآن**، أي ظاهر كلمات **القرآن** أن يلتفتوا إلى الترجمات من

---

(٥١) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٥٩٩.

العربيّة إلى الفارسيّة، لكي يرجعوا إليها بشكلٍ مؤكّد؛ والذين لا يمكنهم ذلك فليحقّقوا في أنفسهم هذه القدرة. أوصيكم بقراءته باللغة العربيّة وبتعلّمه ودرسه، لتحقّقوا حالة الأنس بالقرآن واجعلوه رفيق دربكم، فإنّ كلّ يومٍ وكلّ ساعةٍ تمرّ بدون الأنس بالقرآن هي سببٌ للحسرة والندامة.

القسم الأوّل هو من سورة **الأنعام**. بالطبع، يجب أن تمتلكوا التوجّه إلى أسلوب **القرآن** ولحنه، فهو ليس كالكتب العاديّة بحيث يقول إنّ الفصل الفلانيّ يتعلّق بمعنى الطاعة والعبادة. كلّا، إنّ مستوى بيان **القرآن** ومطالبه وقائله هو أعلى بكثير من هذه المستويات العاديّة. بالنسبة لربّ العالم، فإنّ جميع الكائنات والموجودات هي في مستوًى واحد. لهذا تأتي آيةٌ في موردٍ ما كما تستوجب موقعيّة الوحي؛ وعليكم أن تكتشفوا المطلب الذي تبحثون عنه من إشارات الآية وألفاظها وكلماتها وكيفيّة السياق الموجود فيها.

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾[٥٢]، لقد ذُكر بشأن الحَكم في التفاسير أنّه بمعنى القاضي وأيضًا بمعنى الحاكم. مَن يُطلب منه الحكم، ومَن يُطلب منه الأمر، أو مَن يُطلب منه القضاء. وللاثنين يُقال حَكَم. واللّه تعالى هو أفضل حاكمٍ، وأفضل قاضٍ، والأمر ينبغي أن يصدر من اللّه، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾[٥٣]، فاعلموا أنّه يكون من اللّه الخالق والآمر. ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾، فهل أطلب غير اللّه حاكمًا وقاضيًا في حين أنّه تعالى قد أرسل إليكم هذا المجموع وهذا **القرآن** بتفصيلٍ وتبيينٍ دون اختلاطٍ وامتزاج، والمفصّل هو الذي لا يوجد خلطٌ في مباحثه ولا تداخلٌ في مطالبه ولا يمكن أن يداخله كلامٌ من غير اللّه أو يخالطه، والمفصّل هو المبيّن بالتبيين التامّ والكامل.

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

---

(٥٢) سورة **الأنعام**، الآية ١١٤.

(٥٣) سورة **الأعراف**، الآية ٥٤.

الْمُمْتَرِينَ﴾[٥٤]، الخطاب إلى النبيّ يصونه من أن يكون من المتردّدين ومن أصحاب التوجّهات المتناقضة ويبعده عن التزلزل؛ فأنت الذي تعلم أنّ هذا الكتاب هو من ربّك.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[٥٥]، لقد تمّت ووصلت إلى منتهاها ولا يتخلّف هذا الأمر الذي هو من ربّك، لأنّه من الحقّ وعلى أساسٍ ثابت. ولقد كان أمر الله أن تأتي سلسلة النبوّات وأن يصل الناس بالتدريج إلى الحدّ النهائيّ. ثمّ يأتي دور النبوّة الآخرة، فأجعل الناس في مقابل أفقٍ وسيعٍ وميدانٍ لا نهاية له، وأمنحهم وسيلة السير والعَدْو والتكامل مهماً أمكنَ لكي يتمكّنوا من السير في هذا الميدان اللامتناهي، وإنّا إليه راجعون. هذا هو أمر الله، وهذا هو قدر الله، وهذه هي كلمة الله، وقد تمّت ووصلت إلى غايتها ولا يمكن أن تتبدّل، ﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِماته﴾ ولا يوجد من يقدر على تبديل كلمات الله وأوامره ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، فهو الذي يسمع ويعلم؛ يسمع أصوات احتياجاتكم الباطنيّة ويعلم طريق ورسم المنهج الذي تحتاجون إليه؛ هو الذي يمكنه أن يقدّم البرنامج ويضعه لكم.

﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾[٥٦] انظروا كيف يهيّئ ذهن المستمع. في الآية الأولى، قضيّة الحكومة والقضاء الإلهيّين والتي تُعدّ أوّلى؛ فهو أولى من الجميع بالحكم والقضاء. في الآية الثانية، القضيّة هي قضيّة عدم إمكانيّة تخلّف الدين والأمر الإلهيّ وليفعل العدوّ والكافر والمعاند والمعارض ما يريد من خطأ. فإنّ أمر الله ممضيّ وتامّ. أمّا الآية الثالثة، فتدور حول أنّه لا ينبغي إطاعة الأهواء والهوس والرغبات بل يجب إطاعة الله.

﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، هؤلاء لا يتّبعون سوى الظنون ولا يقومون سوى بالتخمين

(٥٤) سورة **الأنعام**، الآية ١١٤.
(٥٥) سورة **الأنعام**، الآية ١١٥.
(٥٦) سورة **الأنعام**، الآية ١١٦.

والتكهّن، والناس لا يعملون إلّا وفق ذلك. فأولئك الذين يضعون الطرق والأساليب والمناهج لحياة الناس ويقترحونها عليهم، هل أنّهم على يقين بصحّة هذه الطرق؟! ولو كانوا، من باب السذاجة، متيقّنين، فينبغي أن نأمل أن يبقوا أربعين أو خمسين سنة في الدنيا ليروا كيف أنّ خططهم المحكمة ذهبت جُفاءً، وليروا كيف أنّ توقّعاتهم وتكهّناتهم قد ظهرت على أنّها جُزافٌ، فهؤلاء لا يقين لهم ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾؛ فما لديهم هو عبارة عن فرضيّات يريدون أن يديروا أهل الدنيا والمجتمعات البشريّة على أساسها. لكنّ الله تعالى لا يدير أحدًا على أساس الفرضيّة بل إنّه يهدي كلّ الناس إلى الصراط المستقيم على أساس الواقعيّة والعلم، والمعرفة بمعناها الواقعيّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[٥٧].

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾[٥٨]، ويرى الإنسان هنا بمنتهى التعجّب كيف أنّه [بعد ذكر] هذه المطالب الكلّيّة في البداية: أنّ أكثر الناس لا ينبغي إطاعتهم ولا ينبغي اتّباع الظنّ والفرضيّات، وفي مورد النبوّة، أمر الربّ هو الآخر؛ وفي مورد الدين، هو التامّ غير القابل للتبديل. فبعد هذه البيانات الكلّيّة، يقول مباشرةً: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فلكم الحقّ في أن تأكلوا ذلك الخروف الذي ذُبح على اسم الله، هذه تصبح قضيّةً فرعيّة، وقد تبدو بنظر الإنسان أمرًا عجيبًا ويتساءل عن ارتباطها بما سبق. وبالطّبع، إنّ ما أقوله هنا تحت عنوان الارتباط، هو أشياء أذكرها بناءً على تصوّري ولا يوجد شاهدٌ قطعيٌّ عليها. فالميدان مفتوحٌ للاستنتاجات والأفكار والإدراكات. وينبغي أن تُطالع وتُكتشف جهة المناسبة. ولكن بنظرنا يمكن استنتاج بعض الأمور.

أوّلًا، إنّ جميع المسائل بالنسبة لله، الذي هو فوق كلّ هذا العالم وفي مستوىً وأفقٍ ما فوق تصوّر الإنسان - كما ذكرنا - في مستوًى واحد.

---

(٥٧) سورة **الأنعام**، الآية ١١٧.

(٥٨) سورة **الأنعام**، الآية ١١٨.

فبالنسبة لله لا تختلف القضايا الكلّيّة المرتبطة بالبشر عن القضايا الجزئيّة، فجميعها واحدة بالنسبة له تعالى، إنّ كلّ شيء واحد. وما هو أساس سعادة الإنسان مطروحٌ بعنوان أمرٍ واحدٍ بالنسبة لربّ العالم، ولا فرق إذا كان هذا الأمر جزئيًّا أو فرعيًّا أو مرتبطًا بشخصٍ أو بجماعة أو كان عموميًّا ومرتبطًا بجميع البشر.

ثانيًا، فلنغوص في قضيّة الذبح والتزكية بشكلٍ دقيق. فماذا يعني وجوب أن نذكر اسم الله أثناء ذبح الحيوان الذي يريد أن يأكله الإنسان؟ أنتم تعلمون أنّ المشركين والقبائل والأمم والشعوب التي لم تحظَ بالتوحيد كانت تأتي بأسماء المعبودين في كلّ مناسبةٍ وموقعيّةٍ وعند أيّ عمل؛ باسم المسيح مثلًا، كما جاء في الروايات في موردِ المسيحيّين. ونحن نعلم أنّ الأصنام الدنيويّة والقوى الموجودة في الدنيا كانت تسعى دائمًا لذكر أسمائها عند افتتاح أو ديباجة أيّ عملٍ يقومون به. وكلّ عملٍ يبدأ باسم غير الله سيكون له جهة غير إلهيّة حتمًا.

فعندما تقومون بعملٍ ما من أجل المال، أو من أجل هوى النفس، أو من أجل قضايا من هذا القبيل، تحت ذلك الاسم أو ذلك الذكر، فإنّ وجهة هذا العمل عند الشروع به على اللسان أو في الذهن ستكون حتمًا وجهة ذلك الشيء. فالعمل الذي يُنجز مع ذكر المال أو من أجل المال، ستكون وجهته هي المال وتحصيله وستكون مسيرته أيضًا من البداية وحتّى النهاية على هذا الأساس المادّيّ، فيكون العمل في توجّهه وحركته من أجل المال ولا يُطرح أمامه أيّ شيءٍ آخر.

أمّا العمل الذي يُشرع به باسم الله وبذكر الله، فإنّ وجهته ستكون وجهةً إلهيّةً وستكون توجّهاته توجّهات متناسبة مع أمر الله. فيُقال لنا حتّى ذبيحتك عندما تريد أن تذبحها ينبغي أن تكون باسم الله. أي إنّ أولى حاجاتك، وهي الغذاء، ينبغي أن تكون باسم الله ولله. وعندما تملأ معدتك يجب أن يكون ذلك لأجل الله؛ ونتيجة هذا الأمر، إنّ ملء المعدة

لن يكون أصلًا، بل الأصل هو الله. وإذا شعرت ذات يوم أنّك تريد أن تملأ معدتك وكان ذلك سيؤدّي لبُعدك عن الله، فاترك هذا الأمر ولا تملأها واتركها جائعة فارغة ولو أدّى ذلك إلى موتك، فالمهمّ أن لا تتحرّك خلاف الوجهة الإلهيّة؛ من أجل أيّ شيء؟ من أجل أنّ هذه المعدة، وإن كان الإشباع من الحاجات الأساسية، لكنّها ليست الأصل في حياتك، لأنّ الأصل في حياتك هو الله والتوجّه إلى الله. هذا ما يعلّمنا إيّاه «باسم الله» أثناء ذبح الخروف، وباسم الله أثناء تناول الطعام. فابدأ ببسم الله حتّى في أكلك، وابدأ ببسم الله حتّى في سعيك ومشيك، وابدأ به في دخولك وخروجك وذهابك وإيابك، وفي بيتك، وفي دكّانك، وفي كلّ أعمالك.

فماذا يعني ذلك؟ يعني أنّ تمام توجّهات حياتك في سعيك لتأمين أيّ احتياج ولو كان من الحاجات الأوّليّة يجب أن يكون طبق أمر الله وفي سبيل الله. ﴿إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّه رَبِّ الْعالَمِينَ﴾[٥٩]. هكذا يقول إبراهيم: ﴿لِلَّه رَبِّ الْعالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَه﴾، في أيّ مجال من مجالات حياتي، لا في صلاتي وحركاتي ومساعيّ فحسب، بل حتّى في غذائي وطعامي؛ فنطاق وجودي كلّه بيد الله، وفي نطاق قدرته وحكمه. وإن كانت ذبيحة فافعل ذلك أيضًا. إلّا أنّ الكافر القرشيّ يقوم بذلك على نحو، والكافر غير القرشيّ على نحوٍ آخر؛ فعندما يقوم كلٌّ منهما بذبح الخروف، وعندما يأكل ويعيش ويفتح دكّانه، لا يكون الأمر باسم غير الله وذكره فحسب، بل يكون باسم غير الله وبذكر غير الله.

اتّخذوا هذه الذبيحة أنموذجًا؛ واعتبروا أنّ ذكر اسم الله أثناء ذبح الخروف هو أنموذجٌ ورمزٌ - وإن كان هذا الأمر بحدّ ذاته حكمًا فقهيًّا يستلزم ذكر الله قطعًا أثناء الذبح - للاحتياجات الأساسيّة والأصيلة للإنسان، فماذا يعني هذا؟ يعني أنّه ينبغي أن تجعلوا أكثر احتياجات الإنسان ضرورةً وأولويّةً وأصالةً في سبيل الله وأن تطلبوها من أجل الله.

---

(٥٩) سورة **الأنعام**، الآية ١٦٢.

فإذا أكلت لقمة الخبز من أجل أن تزيل جوعك فكُلها في سبيل الله، واجعل ما كان في سبيل الله من أجل أن يعطيك الله القوّة في بدنك. ومن الواضح أنّ الطاقة التي تتولّد في بدن الإنسان من أجل الله ينبغي أن تُنفق في سبيل الله أيضًا، فهذه نتيجةٌ منطقيّة، و٢ +٢ = ٤. فانظروا كم أنّ الأمر دقيقٌ.

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ * وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾[٦٠]، فما هو دليلكم؟ وما الذي حصل حتّى لا تأكلوا ممّا ذُكر اسم الله عليه؟ ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ في حين أنّ الله تعالى قد بيّن لكم بالتفصيل والبيان ما هو حرامٌ عليكم، وكلّ ما عداه وفي حال الاضطرار هو حلالٌ لكم. ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾، فهؤلاء بأهوائهم وهوسهم يخرجون الناس عن الصراط المستقيم ويضلّونهم، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾، وطبق إشارة هذه الآية، فإنّ الذين يضلّون الناس بغير علمٍ هم معتدون ومتجاوزون.

﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾، هناك من الأعمال ما تكون مشاكله وسوء عواقبه ظاهرة، فمن الواضح والمعلوم أنّ قتل النفس هو عملٌ سيّء، وأنّ سلب الكائن الحيّ روحه بدون مرجّح هو عملٌ إجراميّ، فالإثم في هذا العمل واضحٌ وبيّن. وهناك من الأعمال ما لا يكون الإثم فيه بارزًا وظاهرًا وجليًّا، وهناك الكثير من الأشياء التي لا يدرك الإنسان كم هي كبيرة؛ فالكلام بدون علم، والاتّباع بغير علم، والاستخفاف باسم الله وذكره، وطاعة غير الله، والاستماع إلى أوامر غير الله، كلّها أشياء لا يتصوّر الإنسان كم لها من مضارّ وعواقب سيّئة، فهي مخفيّةٌ وباطنةٌ. ولكن يجب على كلّ حال اجتناب هذين النوعين من الآثام والذنوب. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾، فلكلّ معصيةٍ نتيجةٌ ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ وهذا الفسق هو عبارة عن الخروج عن الدين.

---

(٦٠) سورة **الأنعام**، الآيتان ١١٨ و١١٩.

وهنا يتمّ التركيز على أهميّة ذكر الله واسم الله أيضًا.

في بداية ذكر هذه الآيات، كان هناك إشاراتٌ مفيدةٌ لنا حينًا بعد حين فيما يتعلّق بهذا المطلب الذي بيّنّاه هنا. وبالطبع إنّكم كلّما ازددتم تدبّرًا، اتّضح الأمر أكثر، ولكنّ القسم الأساسيّ لاستدلالنا واستنادنا هو القسم الأخير من هذه الآية: ﴿وَإِنَّ الشَّياطينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ﴾، يلهم أقطاب الشرّ والشياطين أولياءهم وأتباعهم وخلفاءهم لكي يجادلوكم. فالشياطين أقطاب الفساد يعبّئون أتباعهم وحلفاءهم من أجل أن يأتوا إليكم ليباحثوكم ويجادلوكم، فما هو تكليفكم تجاه أولياء الشيطان هؤلاء؟ ﴿وَإِنَّ الشَّياطينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ﴾ ولكن أنتم ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، فانظروا كم أنّ الشرك واضحٌ. إنّ طاعة الشيطان الذي هو قطبُ الشرّ ومقابل الرحمن أي مقابل الله في النهاية، فإنّ طاعته وهو قطب الشرّ، أو طاعة أوليائه أي عملائه وآلة أفعاله وأتباعه وحلفائه وعبيده، ستؤدّي إلى أن تصبحوا مشركين، ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

القسم الثاني هو من سورة **الشعراء**. وإنّ أجمل وأنفذ البيانات بالنسبة للناس في مجال الكثير من المعارف، سواءٌ في **القرآن** أو في الحديث، هي التي يكون فيها تصويرٌ أو تجسيمٌ للقيامة. فعندما يُراد تجسيم مطلب ما للمستمع بصورة دقيقة - وهكذا في الأحاديث - ولكي ينفذ إلى أعماق روحه، فإنّه يتمّ تصوير ساحة من ساحات القيامة له، حيث أنّ الحادث الذي ينعكس هنا وهناك هو من هذا القبيل أيضًا. ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٦١]، فالجنّة تُقرَّب بالنسبة لأهل التقوى؛ وهو يذكر هنا يوم القيامة؛ غاية الأمر أنّه يستعمل صيغة الماضي، فالمضارع المحقّق الوقوع يُعبّر عنه باللغة العربيّة بصيغة الماضي، ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾، أي سوف تأتي هذه الساعة.

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ﴾، لقد ظهرت جهنّم للضالّين وللمخدوعين،

(٦١) سورة **الشعراء**، الآية ٩٠.

والغواية هي الإضلال، وأغويناهم أي أضللناهم، و«الغاوين» هم المنخدعون. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾، فأين هي تلك الأشياء والأشخاص الذين عبدتموهم بدلًا عن الله؟ أين تلك الأقطاب التي تعلّقتم بها في حياتكم وعبدتموها، أين هي؟ التفتوا ها هنا جيّدًا إلى كلمة العبادة في قوله: ﴿تَعْبُدُونَ﴾ ولكنّنا نرى مَن هم هؤلاء الذين كانوا يبعدونهم لكي يُعرف معنى العبادة.

﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾، ينتصرون هنا بمعنى يُنصرون. ومن المعلوم أنّ هذه المعبودات محتاجةٌ إلى النصرة، لهذا فهي من الأناسي. وكذلك كون هذه المعبودات هي من نوع الإنسان لا من نوع الحجر والخشب والأصنام الفاقدة للروح، ﴿فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَالْغاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾، فكلّ من قام بعمل على نحو ما من أجل إبليس وقدّم له خدمةً ما، وتحرّك على طريق إضلال خلق الله، فإنّه على كلّ حال سوف يجد مستقرّه في جهنّم ومعاده إليها. ﴿قالُوا وَهُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ﴾، فكلّ طائفة ترمي بذنوبها على الأخرى وتحمّل الأخرى مسؤوليّةَ ضلالها رغم أنّهم جميعًا في جهنّم. ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[٦٢]. وبالرغم من وضوح ضلالهم يقولون إنّنا لم نكن ندرك أنّنا في ضلال بالرغم من أنّهم لو رجعوا إلى أنفسهم قليلًا لعرفوا ما اقترفوا من أخطاء وأي مسيرٍ خطرٍ قد سلكوه وأيّة عاقبة مهلكة كانت تنتظرهم.

﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾، يقسمون بالله ويعترفون بالسبب الذي أضلّهم وهو عملهم ﴿إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾[٦٣]. كان علينا أن نخاف من الله ولكنّنا خفنا منكم؛ وكان علينا أن نطيع أمر الله ولكنّنا أطعنا أوامركم؛ وكان علينا أن نتقرّب إلى الله ونسعى لرضاه لكنّنا تقرّبنا إليكم؛ كان علينا أن نطلب الرزق من الله ولكنّنا طلبناه منكم؛ ﴿إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ

(٦٢) سورة **الشعراء**، الآية ٩٧.

(٦٣) سورة **الشعراء**، الآية ٩٨.

الْعالَمِينَ﴾[٦٤]، ﴿وَما أَضَلَّنا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ﴾، ﴿فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ * وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً﴾[٦٥]، وهنا يعلنون عن تمنّيهم أن يرجعوا إلى الدنيا ليصبحوا مؤمنين؛ ولكنّ كلّ هذه الواقعة والساحة هي عبرةٌ وعلامة وآية؛ فإنّ أكثرهم لم يكونوا أصحاب إيمان.

فانظروا، كيف يجري الحديث في هذه الآيات عن الأشخاص الذين كان الناس يعبدونهم. وعندما ندقّق في أحوال كلّ واحدٍ منهم، سنرى أنّ عبادتهم كانت بمعنى أنّهم اتّبعوهم وساووهم بالله وكانوا يطلبون منهم ما كان ينبغي أن يطلبوه من الله، وقد راعوا آراءهم وما كان ينبغي أن يفعلوا ذلك في سبيل الله.

(٦٤) سورة **الشعراء**، الآية ٩٩.

(٦٥) سورة **الشعراء**، الآيات ١٠٠-١٠٣.

الجلسة الثانية عشرة: التوحيد ونفي الطبقيّة
الإثنين، ١٣ رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجريّ شمسيّ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُون﴾[٦٦].

(٦٦) سورة **المؤمنون**، الآية ٩١.

لقد ذكرنا سابقًا أنّ التوحيد عقيدة عمليّة تبعث على الالتزام، وهي تلقي على عاتقنا مجموعة من الالتزامات والمسؤوليّات ينبغي أن ندركها. وبالطبع، إنّ هذه المسؤوليّات لا تختصّ بالحياة الفرديّة للبشر، بل إنّ الاعتماد الأكبر فيها هو على الحياة الاجتماعيّة والنظام الاجتماعيّ وشكل المجتمع. فعندما يدخل التوحيد إلى أيّ مجتمع، فإنّ أوّل عمل يقوم به هو بناء ذلك المجتمع بشكلٍ يتناسب مع هذه العقيدة. وبعد القيام بهذا الانجاز، يأتي دور إلقاء التكاليف والمسؤوليّات على الإنسان الموحّد كفردٍ في هذا المجتمع.

وعلى كلّ حال، يجب التعرّف على هذه المسؤوليّات. وقد عبّرنا عن هذه المجموعة من المسؤوليّات بمعاهدة التوحيد. قلنا إنّ التوحيد هو معاهدةٌ تُقدّم إلينا مجموعة من المقرّرات والإلزامات التي تُطلب منّا. وإذا أردنا نحن أن نبني إن شاء الله الحياة التوحيديّة، يجب علينا أن نتعرّف على هذه الإلزامات والمسؤوليّات.

فأوّل هذه المسؤوليّات في التوحيد هي انحصار عبوديّتنا وطاعتنا بالله. وقد بيّنّا هذا المطلب فيما مضى. والآن نتحدّث عن الإلزام الثاني الذي يلقيه التوحيد على عاتق الفرد الموحّد، والمجتمع الموحّد، والعالم الموحّد، وهو تحت هذا العنوان المشخّص: التوحيد والقضاء على الطبقيّة (نفي الطبقات الاجتماعيّة).

إنّ المجتمع التوحيديّ هو مجتمعٌ لا يوجد فيه طبقات أو طبقيّة؛ لا يوجد فيه فصلٌ بين جماعاته البشريّة على أساس الحقوق والمزايا. فجميع الناس في هذا المجتمع يعيشون تحت سقفٍ حقوقيٍّ واحد، والكلّ يعيشون ويتحرّكون ضمن مسيرٍ واحد ويتمتّعون بنوعٍ واحدٍ من الإمكانات ونوعٍ واحدٍ من الحقوق. هذا هو المجتمع الذي يقدّمه ويعرضه التوحيد أمام أذهاننا وتصوّراتنا من ناحية الطبقيّة الاجتماعيّة.

وإذا رجعنا إلى التاريخ، سنجد أنّ الاختلاف الطبقيّ كان من الآلام

المزمنة على مرّ التاريخ وفي جميع المجتمعات. ولم يكن الأمر منحصرًا في المجتمعات القبليّة المتخلّفة، ولا في المجتمعات البعيدة عن الحضارة، بل إنّه شمل تلك الدول والمناطق التي تُعدّ من أمّهات الحضارة البشريّة، ومهدها. ففي تلك الأماكن أيضًا، ظهرت الاختلافات الطبقيّة في أبشع صورها وأكثرها بغضًا، كما أظهرت صفحات كتاب التاريخ.

في الواقع إنّ الظلم الأكبر، ووصمة العار الكبرى في تاريخ البشريّة هي الاختلافات الطبقيّة. فماذا تعني؟ إنّها تعني أن يعيش الناس في المجتمع ليسوا متساوين فيما بينهم، فمنهم من يكون محكومًا عليه بمعاناة الحرمان وأن يكونوا خدمًا للجماعات الأخرى ويجب عليهم أن لا يشتكوا من هذا الحرمان والعذاب. وجماعةٌ أخرى ينبغي أن تتمتّع بالامتيازات وتكون لذّة العيش من نصيبها ويمكنها أن تستفيد من جميع الامتيازات دون أيّ إشكال. ففي الهند مثالٌ مناسبٌ جدًّا لهذا الأمر. أنتم تعلمون أنّ الهند هي مهد الحضارة الآريّة، وقد جاء العرق الآريّ من هذه المنطقة منذ بداية المدنيّة، ومنذ بداية تشكّل الشعوب والجماعات. ويُقال إنّ العرق الآريّ قد هاجر من الأراضي الشماليّة ومن سيبيريا وعندها تشعّب إلى فئتين: واحدةٌ سكنت الهند وأخرى إيران. والذين سكنوا في الهند كانوا أسرع إلى المدنيّة والحضارة من الذين جاؤوا إلى إيران وعاشوا فيها.

إنّ مهد الحضارة الإنسانيّة، أو إحدى هذه المهاد، هي الهند التي تضجّ فيها الخلافات الطبقيّة. يُقال إنّ في الهند أربع طبقات أساسيّة. الطبقة السفلى ويوجد فوقها مئات الطبقات التي تكون بين هذه الطبقات الأربعة الأساسيّة. وإذا أردتم أن تتعرّفوا على التفاصيل يمكنكم أن ترجعوا إلى الكتب المرتبطة بتاريخ الأديان، وكلّ من كان لديه مثل هذه الرغبة والتوجّه، فليقرأ ويطالع ويتفكّر قليلًا ويقارن مع التوحيد والقرآن. لقد قُسّم الناس هناك إلى أربع طبقات: الطبقة الأولى وهم البراهمة ورجال الدين والروحانيّون الذين اعتُبروا الطبقة الاجتماعيّة العليا. والطبقة الثانية هي

قادة الجيش وأبناء الأمراء، وبالطبع بين هاتين الطبقتين يوجد خلافاتٌ ومناكفاتٌ كثيرة. ففي السابق، كان أبناء الأمراء في الطبقة العليا، وكان الروحانيّون في الطبقة الثانية، وعلى إثر مجموعة من العوامل التي حدثت والاضطرابات التي جرت، تمكّن الروحانيّون والبراهمة من أن يحوزوا على الطبقة العلميّة والعُليا وجعلوا قادة الجيش وأبناء الأمراء والإقطاعيّين في الطبقة الثانية.

وإذا عبرنا الطبقة الثانية، نصل إلى طبقة المزارعين والعمّال والصناعيّين. وكما نلاحظ، إنّ الطبقة الأولى والثانية لا تعمل، ولم يكن للبراهمة من عمل سوى قراءة بعض الأوراد والأذكار وتحريك أياديهم، كما لم يكن للإقطاعيّين والدهّاقين وأبناء الأمراء من عمل سوى أن يزدادوا ثراءً وتملّكًا للأراضي وتوسعةً لسلطاتهم وسيادتهم. أمّا الصناعيّون والمزارعون، فقد كانوا يتولّون الأعمال المتعلّقة بكلّ هذه الأراضي. والطبقة الرابعة هي عامّة الناس؛ فمنهم الكسبة ومنهم مَن يقوم في المجتمع بالأعمال اليدويّة والمحقّرة. ولأنّ جميع هذه الطبقات من الآريّين، فقد كان أيّ عنصرٍ من خارج هذا العرق الآريّ يوسم بالأجنبيّ ويُعدّ نجسًا، وكانت هذه الطبقة تُسمّى بطبقة الأنجاس.

وبالطبع، إنّ ما أذكره هنا الآن موجودٌ في التاريخ الذي امتدّ وامتدّ وامتدّ حتّى وصل إلى القرن العشرين. وفي الهند - ما أذكره لكم الآن حول الهند بقي ساريًا بكلّ قوّته واعتباره حتّى السنوات القريبة الماضية – أزال غاندي، قائد الهند المتوفّى، تسمية طبقة الأنجاس والمنحطّين، وقال أيّ نجاسة تلك؟! أمّا الرئيس السابق للهند، نهرو[٦٧]، وابنته التي هي رئيسة الدولة الآن، فقد كانا من البراهمة أي من الطبقة العليا، كما كان والده

(٦٧) جواهر لعل نهرو (١٨٩٨ – ١٩٦٤ م.) من قادة نهضة استقلال الهند. تخرّج بفرع الحقوق من جامعة كامبريدج والتحق بنهضة استقلال الهند وحزب المؤتمر بعدما شاهد معاناة الهنود وظلم الإنكليز لهم في أحداث الحرب العالميّة الأولى. وقد انتُخب كرئيس للوزراء بعد استقلال الهند. وانتُخبت ابنته أيضًا انديرا بعده مباشرةً لنفس المنصب.

پنديت نهرو من هذه الطبقة أيضًا. ولأنّه كان معارضًا للدين، ولم يكن متديّنًا، فقد كان يكره أن يُقال له من البراهمة، وأن يُطلق عليه اللقب المخصوص بهم. وعلى كلّ حال، أردتُ أن أقول إنّ هذه الأشياء لم تكن مرتبطة بالتاريخ القديم كثيرًا. بعد أربعة عشر قرنًا أو ثلاثة عشرة قرنًا ونيّف على ظهور شمس التوحيد القرآنيّة، نجد أنّ الهند التي كانت مهد التمدّن والحضارة البشريّة كانت تعاني من وجود الخلافات الطبقيّة.

وسأسرد بالتفصيل حول الحديث عن الخلافات الطبقيّة. وكما ذكرنا، يوجد بين كلّ طبقة وطبقة عشرات بل مئات الطبقات الفرعيّة بحسب ما كتبه «جون ناس»[٦٨] في تاريخ الأديان. وفي ذلك الوقت، لم يكن التزاوج أو التواصل أو السلام باليد أو الجلوس في المقابل أو المشي سويًّا مسموحًا بين الطبقات، وقس عليه. فقد كان ثمّة جدار فولاذيّ يفصل بين هؤلاء جميعًا. فلماذا يحصل هذا الأمر؟ ولماذا لا يكون للبراهمة أيّ نوع من الاتّصال مع المزارعين أو الكسبة العاديّين أو ذاك الشخص المسؤول في الجيش؟ وأيّ امتيازٍ طبيعيّ ممّا لم يكن لذاك الشخص العامّيّ العاديّ؟ فلو سألنا مثل هذا السؤال، هل تعلمون ماذا سيكون جوابهم؟ كانوا سيقولون إنّه فضوليّ موقوف! وذلك لأنّ الناس في أصل خلقتهم وتكوينهم قد خُلقوا أنواعًا، وهذا الأمر لا يرتبط بالقانون والجعل والوضع من قبل زيد وعمر وأمثالهم، بل قالوا إنّه يرجع إلى أصل الخلقة. فقالوا عندما أراد براهما الربّ العظيم أن يخلق الكائنات، وعندما أراد أن يخلق الإنسان، خلق البراهمة من رأسه، أمّا الدهّاقين وقادة الجيش وأبناء الأمراء فقد خلقهم من يديه، وخلق المزارعين من عضده، أمّا أبناء الطبقة العاملة فخلقهم من قدميه. وأمّا باقي الطبقات النجسة، فهي ليست من خلقه في الأساس وليس لهم جذور طاهرة لأنّه لا ينتمون إلى هذا العرق. فعندما خلق براهما الطبقة الرابعة

(٦٨) كتاب **تاريخ جامع الأديان** تأليف «جون ناس» يبحث في الأديان والمذاهب القديمة في العالم وإلى العصر الحديث في أربعة أجزاء. والأديان القديمة والماضية هي أديان الهند وأديان الشرق الأقصى، وأديان الشرق الأدنى.

من قدمه فأيّ حقٍّ لها أن تعتبر نفسها متساوية مع البراهمة الذين خلقهم من رأسه؟! فيؤكّدون بذلك على أنّهم غير متساوين في الخلقة، وهناك مجموعةٌ من الناس لهم أصولٌ أشرف ويستحقّون المزيد من الاحترام ولهم المواهب الطبيعيّة والامتيازات الذاتيّة!! مثلما أنّ الحرمان هو نصيب الطبقات الدنيا. هذا هو المنطق الذي كان سائدًا.

فكرّوا الآن، هل يمكن للاختلافات الطبقيّة أن تزول من مثل هذا المجتمع؟ هل أنّ مثل هذا الشيء ممكن؟ وكيف يمكن أن يصبح ممكنًا؟ برأيكم، مَن الذي يمكنه أن يقضي على الخلافات الطبقيّة في مثل هذا المجتمع الذي تجذّرت فيه النزعة الطبقيّة؟ وهل أنّها الطبقة العُليا والمستفيدة التي ستقوم بالتخلّي عن حقوقها في سبيل الله؟! هذا وهم وخيال. فلو أريد القضاء على الخلافات الطبقيّة في هذا المجتمع، فلا بدّ للطبقة المحرومة أن تقوم بالمطالبة بحقوقها وبامتيازاتها وأن تعترض على الامتيازات الزائدة التي تتمتّع بها الطبقات العليا. لكن من المستحيل للطبقة الدنيا في مثل هذا المجتمع الذي تحدّثت عنه، أن تعترض، لماذا؟ لأنّها تعتقد بأنّ هذا هو الوضع الطبيعيّ وتؤمن أنّها خُلقت على هذه الشاكلة من الأصل، فلا يمكن تغيير أصل الخلقة، ولا يمكن القيام بأيّ عملٍ من أجل ذلك.

عندما يعتقد الإنسان أنّ الطبيعة والفطرة والخلقة الأوّليّة التي جعلها الله له قد كانت بصورةٍ خاصّة، فمن المستحيل أن يتوقّع غير هذه الصورة ويأمل بتبديلها والوصول إلى المزايا والحقوق التي لا تتناسب مع وضع خلقته وطبيعته. لا أحد يستطيع أن يغيّر حظّه[٦٩]. فنحن كما يُقال قد أُلبسنا منذ البداية هذا اللباس الأسود، ونحن أصحاب أصولٍ سيّئة ولا يمكننا أن نقوم

---

(٦٩) للشاعر حافظ

به گوش جان رهی منهیی ندا درداد ز حضرت احدی لا اله الا الله
که ای عزیز کسی را که خوری ست نصیب حقیقت آنکه نیابد به روز منصب وجاه
به آب زمزم و کوثر سفید نتوان کرد گلیم بخت کسی را که بافتند سیاه

بأيّ شيءٍ لتغييره. فإذا أخذتم الأسود وغسلتموه في البحار، فإنّه لن يتبدّل وسيبقى على سواده. فمن كان أسود منذ بدايته فكيف يمكن أن يتبدّل؟! لا بل إذا غسلتم عنه الغبار والتراب، فإنّ سواده سيظهر أكثر ويزداد سوادًا!! بناءً عليه، وكما لاحظتم، فعبر التاريخ، كان مثل هذا الظلم الكبير موجودًا في هذه المجتمعات، ولم يكن من وسيلة للقضاء عليه أبدًا.

بالطبع، فقد ظهر مصلحون وقاموا بتبديل الأفكار. دقّقوا جيّدًا بهذه الملاحظة التي أنا بصدد الحديث عنها لأنّ هذا يُعدّ من علامات فلسفة الأديان الاختصاصيّة. عندما يأتي المصلحون يقومون أوّلًا وفي البداية بتبديل الأفكار وتغيير الثقافة، ويقولون أوّل ما يقولون إنّ تلك الفلسفة خاطئة لأنّ الناس قد رضوا بالأوضاع الظالمة على أساس الخطأ الموجود في تلك الفلسفة. فهذا تحليل صحيح للتحوّلات التاريخيّة. وليس من الصحيح أن نقول إنّ الأوضاع تتبدّل أوّلًا، وأوّل ما يتغيّر هو الشكل الاجتماعيّ، ثمّ تتبدّل الفلسفات والأفكار بعدها، كلّا. فالمصلحون يأتون أوّلًا، وهذا هو تاريخنا، تاريخ مشرق الأرض. فأولئك الذين يفكّرون بتلك الطريقة ويحملون تلك الفرضيّة، هم برأينا لم يطالعوا تاريخ مشرق العالم، وإنّما اكتفوا بقراءة تاريخ أوروبا. فهذه هي الهند، وهذه الصين، وهذه إيران، وهذه مصر، لقد وُجد فيها المصلحون أوّلًا، وقاموا في بداية الأمر بتبديل الأفكار. هم مصلحون دينيّون بدّلوا الفلسفات، وعندما تبدّلت الفلسفات والأفكار، تهيّأت الأرضيّة لتغيير الوضع الاجتماعيّ والنظام الفاسد الحاكم على المجتمع. أجل، لقد كان الأمر على هذا المنوال طوال التاريخ.

لقد لاحظتم، هكذا كانت الهند، وفي إيران أيضًا كان الوضع على هذا المنوال، وكذلك في مصر والصين. لقد كانت الأوضاع على هذا المنوال في أيّ مكانٍ وجدتم آثارًا للحضارة. فماذا يعني ذلك؟ لقد كان يُقال: بما أنّ النّاس قد خُلقوا على نحوين وجُبلوا من أصلين وفطرتين وطينتين أو أكثر، فإنّ حقوقهم الاجتماعيّة ينبغي أن لا تكون متساوية، ولا يجب أن يتساووا

في أمورهم، وكلّ من يدّعي خلاف ذلك، فهو مخطئٌ.

ثمّ جاء الإسلام، ونفى عقائد الشرك وتعدُّد الآلهة، وقضى على الأرباب المصطنعين، ولم يعد إلّا الله الواحد الأحد. أولئك الذين كانوا يتخيّلون أنّه يوجد عدّة آلهة، قام كلّ واحدٍ منهم بخلق جماعة من الناس، وعلى هذا الأساس كانت كلّ جماعة ذاتَ مميّزات ومشخّصات مختلفة، وقد وقعوا في خطإٍ فادح. فثمّة إله واحد خلق العالم كلّه، وتدبيره وتربية العالمين كلّهم في قبضة قدرته. وقد خلق الناس جميعًا سواسية. فالكلّ من أصلٍ واحد ﴿خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ والكلّ من طينة واحدة، وفطرة واحدة، وأصلٍ واحد، ومَنشإٍ مَادّيٍّ واحد. والآيات القرآنيَّة في هذا الشأن كثيرة: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ وَالَّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[٧٠].

قلنا إنّ جميع الناس من أصلٍ ومنشإٍ وجذرٍ واحد؛ والكلّ قد جاؤوا إلى هذه الدنيا بنوعٍ واحد من الأجهزة والمعدّات؛ وإنَّ كلّ الناس لديهم الاستعداد للوصول إلى الأوج والعروج إلى التكامل اللامتناهي. الكلّ يمكنهم أن يصبحوا أعظم وأعظم وأعظم. هذا الاستعداد موجودٌ في الجميع. وبالطبع، عليكم أن تلتفتوا إلى أنّه يوجد من الناس مَن هم أعلى من المستوى العاديّ للبشر بصورة محسوسة وهم الأنبياء والأئمّة؛ وهؤلاء جميعًا ليسوا داخلين في هذه القاعدة الكلّيّة. وما ذكرناه من أنّ كلّ إنسانٍ يمكنه أن يحلّق ويصل إلى المطلق، لا يعني أنّ كلّ إنسان يمكنه أن يكون نبيًّا أو إمامًا من خلال السعي والمجاهدة؛ فمثل هذا الأمر يرتبط ببحث آخر عن كيفيّة صيرورة البعض أنبياء وأئمّة. ومن الممكن أن نشير إلى هذه القضيّة بصورة مختصرة في الأبحاث اللاحقة إذا استطعنا ووجدنا سبيلًا لحديث آخر.

وبالإجمال، إنّ الأنبياء والأئمّة، صلوات الله عليهم، يتمتّعون بإمكانات أعلى، وفيهم من الخصائص ما ليس موجودًا في الناس العاديّين؛ وأنتم

---

(٧٠) سورة **البقرة**، الآية ٢١.

تعلمون أنّ هؤلاء في عددهم قلّة، وهم استثناء، أمّا الحديث فهو حول أفراد المجتمعات البشريّة بشكلٍ عام. وبالطبع، إنّ الأنبياء والأئمّة أنفسهم من جذورٍ نشآت مادّيّة، وهمٍ في ذلك لا يختلفون عن الناس العاديّين أبدًا، «أبوهم آدم والأمّ حوّاء»[٧١].

يمثّل هذ الأمر أحد التعاليم الإسلاميّة، ففي ظلّ التوحيد يتعلّم الناس جميعًا ويتمّ إثبات وتدوين هذه القضيّة لهم، وهي: أنّه لا يوجد أيّ نوعٍ من الخلافات الطبقيّة في المجتمع. فذاك المجتمع الذي يحقّقه الإسلام لا يُوجد فيه الجماعات المتفرّقة والطبقات؛ ولا يمكن أن يكون هناك من الناس من يتمتّع بحقوقٍ لا يتمتّع بها جماعاتٌ أخرى؛ وفي ذاك المجتمع لا يُقال إنّ الناس تشكّلوا من أصلين وجذرين أو خُلقوا من منشئين أو أكثر؛ وفي ذلك المجتمع لا يُقال إنّ هناك من خُلق من تراب وهناك على سبيل الفرض من خُلق من النور. وباللحاظ المادّيّ، إنّ منشأ الجميع هو أمرٌ واحد. بناءً عليه، فإنّ التوحيد الذي يعني الإله الواحد، وأنّ تدبير وخلق وإدارة العالم تتحقّق من إله واحد، هو الضامن لنفي الطبقات الاجتماعيّة.

كما أنّ الطبقات الاجتماعيّة لم تكن دائمًا على الوضع الذي كانت عليه في الهند - كما ذكرت وبيّنت-، ولم تكن هذه الخلافات الطبقيّة في الأماكن المختلفة من العالم نابعةً من فلسفةٍ واحدة أو من تلك الفلسفة التي ذُكرت. فما أكثر تلك المجتمعاتٍ والشعوب والملل التي كانت تعرض فلسفتها وادّعاءتها وتصوّراتها بين الناس والتي تقول إنّ الجميع بمستوىً واحد ولكنّهم من الناحيّة العمليّة كانوا يعيشون مثل تلك الاختلافات الطبقيّة كما هو الحال الآن في عالم اليوم الذي نعيش فيه.

فانظروا اليوم إلى العالم، وخصوصًا إلى العالم الرأسماليّ، وبالأخصّ إلى تلك الدول التي وصلت من الناحية المادّيّة إلى أوجّها، كيف أنّ الخلافات

---

(٧١) الشيخ محمّد باقر الكجوري، **الخصائص الفاطميّة**، ترجمة سيّد علي جمال أشرف (انتشارات الشريف الرضيّ، الطبعة ١، ١٣٨٠ هـ. ش)، الجزء ١، الصفحة ٥١٦.

الطبقيّة مشهودةٌ على نحو بارز. وبالطبع، إنّهم لم يقولوا هناك أبدًا إنّ العمّال والأسياد قد خُلقوا من منشئين أو جذرين خلقيّين؛ كلّا، إنّهم لا يقولون إنّ ذاك السيّد صاحب الشركة الفلانيّة العظيمة أو ذاك الكارتيل الفلانيّ يختلف مع ذاك العامل في المناجم من ناحية الجذر والأصل! كّلا، لكنّهم من الناحية العمليّة يتصرّفون على هذا النحو؛ وتلك القوانين والمقرّرات التي يضعونها لهاتين الجماعتين تؤدّي إلى ذلك الوضع المسلكيّ في المجتمع الذي لا يختلف كثيرًا عن ذلك المجتمع الذي كان أهله يعتقدون بالأصول المتعدّدة للخلقة والمناشئ.

فبالنسبة للبعض تكون الإمكانات لامتناهيّة، وبالنسبة لغيرهم تكون الإمكانات بحدود الصفر. هناك جماعة تستغلّ جميع ثروات العالم لمصالحها، وأخرى لا يُسمح لها أن تنال ما تكّده بأيديها. فالخلافات الطبقيّة تصدق على هذا المعنى أيضًا، وهي موجودة في عالمنا اليوم؛ بل إنّني أريد أن أقول إنّ الاختلافات الطبقيّة اليوم هي أشدّ قبحًا وأذًى من الاختلافات الطبقية التي كانت في ذاك الزمان. كان الماضون يقولون بصراحة إنّنا مختلفون فيما بيننا، أمّا هؤلاء فيدّعون أنّنا جميعًا إخوة ومن أصلٍ واحدٍ وإنّنا ندافع عن حقوقكم؛ لكنّهم في الواقع العمليّ كما نرى ليسوا كذلك، بل يحافظون بشدّة على تلك الامتيازات. وقد نشاهد أحيانًا في مقام إجراء المقرّرات الحقوقيّة أنّه من المساواة، على سبيل المثال، معاقبة شخص من الطبقة العُليا ارتكب الجرم الفلانيّ؛ ولكنّ الأمر ليس كذلك، فإنّ القضيّة لها أسبابٌ أخرى، ونرى أنّ تلك الخلافات الطبقيّة ما زالت على حالها وحافظت على تلك الامتيازات الاجتماعيّة بقوّتها. وفي الحقيقة، إنّ كلّ أنواع الاستمتاع والاستفادة تنحصر في عدد خاصّ وتبقى الأكثريّة الساحقة محرومة، وإنّ أوّل الأشياء التي حُرمت منها تلك الطبقات هو الفهم والإدراك والرشد الكامل والصحيح.

إنّ الإسلام يرفض جميع هذه الأمور. وأنا أقول إنّ ما يُستفاد من

مجموع آيات **القرآن الكريم** في مجال رفض الطبقيّة الاجتماعيّة - عندما أفكّر فيها أجدها كثيرة جدًّا، وسوف أبيّن زاويةً من هذه المعارف الموجودة في هذه الآيات التالية التي تشير إلى ذلك الأمر - هو باختصار على الشكل التالي:

إنّ الخالق والمعبود والمدبّر لجميع الأمور هو الله. هذا هو كلام الإسلام. فخالق الجميع هو موجودٌ واحد وهو الله. وأنتم تقولون ما هو الفارق؟ إنّه فارقٌ كبير. فلو أنّنا قلنا إنّ الخالق اثنان – على سبيل الفرض - فإنّ ذلك المجتمع وتلك الفلسفة الثنويّة ووجود إلهين سيكون له تأثيرات كثيرة وأوّلها أنّه سيؤدّي إلى وجود جماعتين في المجتمع. وعندما نؤمن بربٍّ واحد فمعناه أنّ أبناء المجتمع هم جميعًا في صفٍّ واحد، وجماعة واحدة، وطبقة واحدة؛ فالكلّ إخوة والكلّ في مستوًى واحد. وإنّني هنا أتوجّه إلى لوازم هذه الجملة وليس لي دخلٌ الآن بلوازم تلك الفلسفة القديمة والمنسوخة. أريد أن تلتفتوا إلى أنّنا عندما نعتقد بإلهٍ واحدٍ فماذا يعني ذلك؟ إنّ الإله واحد، لا تعدّد للآلهة، يعني أنّ عباده كلّهم في صفٍّ واحد وليسوا موزّعين على صفّين وطبقتين. فهذا هو أحد معاني الوحدانيّة ونفي الثنويّة؛ وبالطبع إنّ هذا ليس هو المعنى الوحيد للتوحيد. فعباد الله هنا ليسوا على طبقتين بل هم طبقةٌ واحدة، وذلك لأنّ إلههم وخالقهم واحد.

فهل أنّ الله عندما خلقهم كان له توجّهٌ حبّيٌّ إلى جماعة منهم أكثر من غيرهم؟ ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[٧٢]، والله تعالى يذكر إحدى جرائمهم في موضعٍ آخر، ويشمت بهم ويقول: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ﴾[٧٣]، فلو كنتم مقرّبين إلى الله ومن جماعته وأحبّائه، لماذا كنتَم تقتلون أنبياءه؟ لماذا قتلتم عباده الذين اصطفى؟ لماذا؟ فاليهود كانوا يقولون نحن أبناء الله وجماعته المقرّبة فنتمتّع بامتيازٍ خاصّ! كلّا، الإسلام يقول إنّ هذا

(٧٢) سورة **المائدة**، الآية ١٨.

(٧٣) سورة **البقرة**، الآية ٩١.

كلامٌ خاطئٌ. وفي موضع آخر يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ (٧٤). حَسنٌ، أعرضوا إذن عن هذه الحياة السخيفة وارتحلوا إلى ربّكم المحبوب العزيز الذي هو لكم. وبعدها يقول ﴿وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا﴾ فهل يمكن لليهوديّ أن يتمنّى الموت؟!

فالخالق والمعبود والمدبّر لأمور الكلّ هو الله. وهذه القضيّة غايةٌ في الأهميّة، حيث إنّه إذا كان الخالق والمعبود واحدًا، فلا بدّ أن يكون الناس في طبقة واحدة ومستوًى واحد. فالكلّ قد خُلقوا من أصلٍ وجذرٍ ماديٍّ واحد. وعلينا أن ندقّق في هذه الكلمة المادّيّة ونعتمد عليها بشكلٍ خاصّ. فمن الناحية المادّيّة ومن جهة بناء البدن وتشكّله، فإنّ جميع الناس قد خُلقوا من أصلٍ وجذرٍ واحد، ولا يتمتّع أيّ شخصٍ في الخلقة من مزيّة تكون منشأً لامتيازات واستفادات حقوقيّة محدّدة. دقّقوا جيّدًا في هذه القضيّة. لا يعني ذلك أنّه لا يتمتّع بمزيّة معيّنة؛ لماذا؟ لأنّه من الممكن أن يحقّق بعض الناس استعدادًا خاصًّا ضمن ظروفٍ محدّدة فتكون هذه مزيّة معيّنة. ومن الممكن أن يُخلق بعض الناس بصورة النوابغ من ناحية ظروف الخلقة المحدّدة. ومن الممكن أن يولد البعض من أبٍ وأمٍّ يتمتّعان باستعدادات مميّزة فيكون البعض أقلّ استعدادًا والبعض الآخر أكثر قدرةً، والبعض الآخر أضعف وأنحف، والبعض أجمل، والبعض أبشع، فهذه الاختلافات موجودة ولكنّ جميع هذه الاختلافات لا تكون منشأً للامتيازات الحقوقيّة. فلا يلزم لمن يكون متمتّعًا ببعض القوى الجسميّة الإضافيّة أن يكون متمتّعًا بحقوقٍ اجتماعيّة إضافيّة، الأمر ليس كذلك، كلّا وأبدًا. فلا يلزم لمن يولد في بيتٍ أرستقراطيٍّ وذي نفوذ في الدنيا أن يتمتّع بالمزيد من الإمكانات، أبدًا. فإنّ الإسلام إذ افتتح مدرسةً فينبغي أن تكون لجميع الأولاد؛ وإذا

(٧٤) سورة **الجمعة**، الآية ٦.

قام بدور التربية والتعليم، فإنّ ذلك ينبغي أن يكون للجميع. ولو أنّه منح الناس إمكانيّة التكسّب والسعي والعمل في الحياة، فذلك ينبغي أن يكون للجميع. فحقوق العمل ينبغي أن تكون مفتوحةً للجميع.

وفي المجتمع الإسلاميّ الذي يكون تحت سلطة الحكومة الإسلاميّة وفي ظلّ أحكامها، لا يحتاج أحدٌ من أجل أن يدرس، أو يعمل، أو يفهم شيئًا، أو يكسب مالًا، أو يحصل على شغل أو مهنة حتّى في أعلى المقامات، لدفع الرشاوى. هكذا يكون المجتمع الإسلاميّ ميدانًا وسيعًا يفتح ملايين السبل لملايين الناس لكي يسعوا ويستفيدوا ويسارعوا في هذا الميدان نحو الأهداف والمقاصد المادّيّة والمعنويّة فلا إشكال في ذلك أبدًا؛ لأنّ السبيل مفتوحٌ أمام الجميع؛ وذلك على خلاف الأنظمة غير التوحيديّة وخلافًا للأنظمة الجاهليّة التي تعبّد الطريق للبعض وتجعل الأشواك والموانع والسدود على طريق البعض الآخر. وبقول الشاعر سعدي: يقيّدون الحجر ويطلقون الكلب؛ فالأمر في المجتمع الإسلاميّ لا ينبغي أن يكون هكذا.

في المجتمع الإسلاميّ، يستطيع الجميع أن يصل إلى أعلى المقامات. حسنٌ، أنتم ترون أنّ بلال الحبشيّ قد وصل إلى مقام المؤذّن - ولا تقارنوا بأيّامنا هذه حيث يشعر المؤذّن بنوع من الذلّة وغالبًا ما لا يأتي- فمقام المؤذّن هو مقامٌ عظيمٌ جدًّا وجليل في الإسلام، ولا يكون أيّ شخص مؤذّنًا نظرًا لعلوّ هذا المقام. فبلال الأسود الحبشيّ الذي كان من بيئةٍ اجتماعيّةٍ وضيعة، وبلحاظ المعايير الاجتماعيّة لذلك الزمن، نراه يصل إلى مقام المؤذّن وهو المقام العالي أو من أعلى المقامات. وكان سلمان الفارسيّ بحسب المعايير السائدة في ذلك الزمان من بيئةٍ دانيةٍ أيضًا لأنّ العرب كانوا يعدّون أنفسهم الأرقى ويرون كلّ من سواهم أدنى منهم. حسنٌ، هذا سلمان الذي كان فارسيًّا ومن أهل أصفهان، ولعلّه لم يتعلّم اللغة العربيّة بنحوٍ صحيح، فلعلّه أو من المسلّم أنّه لم يكن يتكلّم بطريقةٍ صحيحة، نجده يصلُ إلى الولاية والحكومة على منطقةٍ واسعة؛ ومن هذا القبيل الكثير.

بناءً عليه، لا يوجد أيّ إنسانٍ يتمتّع من حيث الخلقة بمزيّةٍ تكون منشأً لامتيازاتٍ حقوقيّة ولو أنّه تمتّع ببعض الامتيازات والخصائص. إنّ الامتيازات والمواهب موضوعة أمام الجميع وترتبط بسعيهم المستمرّ ومجاهدتهم. إنّ كلّ الأشياء وجميع المراتب والمقامات بل كلّ العالم منه سبحانه وتعالى - لقد ذكرت ذلك ما عدا تلك المقامات الخاصّة لهداية وقيادة البشر التي تكون تعيينًا إلهيًّا صرفًا وتُعدّ من قبل الله تعالى، ولا أقصدها في كلامي الآن -، وجميع البشر فقراء في حضرته وعليهم أن يطلبوا منه ويسألوه وأن يأخذوا منه ويتلقّوا ويفتحوا أيدي الضراعة والتوسّل إليه؛ فهناك الكلّ في صفٍّ واحد والكلّ سواء.

إنّ الإمام السجّاد، صلوات الله عليه، الذي هو حفيد النبيّ وابن أمير المؤمنين وابن فاطمة الزهراء وابن الحسين بن عليّ، عليهم السلام، كان عليه أن يتضرّع ويناجي ويبكي ويذرف الدموع ويسعى سعيه. وأيّ إنسانٍ لا ينتمي إلى هذه العترة الطاهرة كذلك ينبغي أن يتضرّع ويناجي ربّه على هذا المنوال. وكان على الإمام الباقر والإمام الصادق، صلوات الله عليهما، أن يعملا ويستخدما المعول من أجل التكسّب في الدنيا، وكذلك أيّ شخصٍ عاديٍّ عليه أن يحمل الفأس بيده. ولا أضرب الإمام الصادق مثالًا، فأمير المؤمنين، صلوات الله وسلامه عليه، كان يعمل أيضًا وعمله كان في أيّام حكمه وفي أيّام سلطته. وقد كان في زمان النبيّ أحد أكبر قادة الجيش في جميع الحروب، كان يحمل المعول ويذهب للقيام بأعمال الزراعة ويعمل لحفر الآبار وأشياء من هذا القبيل. انظروا، إذا أردتم أن تحصلوا على المال يجب أن تعملوا، وإذا أردتم أن تنالوا العلم فيجب أن تدرسوا، وإذا أردتم المقام السياسيّ فيجب أن تقوموا بالسعي المطلوب. وإنّ طريق السعي مفتوحٌ أمام الجميع، فالكلّ وأيّ شخصٍ إذا سعى يصل.

إنّ منطق الإسلام هو هذا. وبالطبع، يمكن أن نشاهد هذا المنطق كثيرًا وبوضوح في جميع أنحاء **القرآن** وفي الآيات المختلفة. وأنا هنا أيضًا أرجعكم

إلى **القرآن** ومتنه، فاذهبوا وافتحوه وانظروا فيه نظرة تدبّر لكي لا نكون مشمولين بهذه الآية: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها﴾[٧٥].

أمّا ما يرتبط بسورة **المؤمنون** من الآية ٨٤ إلى الآية ٩١ ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيها إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٧٦]، فالله يخاطب نبيّه ليقول للمشركين، هؤلاء المشركون الذين كانوا يقسّمون ويحدّدون مناطق نفوذ أربابهم، يا أيّها النّبيّ لمن هذه الأرض ومن فيها؟ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾. حسنٌ إنّ مشركي مكّة كانوا يعتقدون بالله وكانوا يعتبرون أصنامهم شفعاء عند الله، ﴿قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[٧٧]، فما معنى العرش؟ وما هي السماوات السبع؟ لقد ذكرنا بعض ما يتعلّق بهذه الأمور بصورة مختصرة في الأبحاث السابقة ولم نتطرّق إلى البعض الآخر لعدم وسع المجال لذلك. ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ فإنّ قدرة وملك الربّ قد شملت السماوات والأرض. ﴿قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾، فلماذا إذن لا تجعلون أعمالكم وأفكاركم متطابقةً مع كلامه وأوامره؟

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجارُ عَلَيْهِ﴾ فله الحكومة والسلطة المطلقة والكلّ بيده. وأولئك الذين حصلوا على تلك القوى والإمكانات، فإنّهم قد تسلّطوا على ظاهر جسم معين. فأنتم عندما تملكون بيوتكم وعندما تنقلون قطعةً من الآجر من مكانٍ إلى مكان، فإنّ تسلّطكم يكون بهذا المقدار. وعندما تنقلون قطعةً من الحديد من مكانٍ إلى مكان وتقومون بتلحيم قطعتين من الحديد أو بفصلهما عن بعضهما البعض، فإنّ سلطتكم على هذه القطعة من الحديد تكون بهذا المقدار. أمّا ذاك الذي هو مسلّطٌ على جميع ذرّات أجزاء هذا الموجود وتكون حركات ذرّاته

---

(٧٥) سورة **محمّد**، الآية ٢٤.

(٧٦) سورة **المؤمنون**، الآية ٨٤.

(٧٧) سورة **المؤمنون**، الآية ٨٦.

بيده وتحت أمره وتكون جميع النباتات في نموّها والحيوانات والبشر في حركاتهم الداخليّة وكلّ أشيائهم بقبضة قدرته فهو الله.

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِه مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فهو الذي يجير ويؤمّن ولا يكون لأحد القدرة لأن يجير أحدًا آخر من دون إذنه ومقابل قدرته؛ فيُجار عليه. فافرضوا أنّ المسيحيّين يعصون الله ويلجأون إلى عيسى وعيسى بدوره يجيرهم ويعطيهم ملاذًا ويحميهم من الله، فهل يمكن حدوث هذا؟ ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ إنّه يعطي لأيّ موجود أو أيّ إنسان الملاذ الآمن؛ ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْه﴾ فلا يمكن لأحد أن يعطي هذا الملاذ رغمًا عنه أو ضدّه. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فمن هو هذا؟ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّه﴾. فإنّ قولهم إنّ الله بيده مَلكوت كلّ شيء، هو الذي يجير ولا أحد يجير رغمًا عنه ﴿قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ فقل لهم كيف تُخدعون؟

ومن اللطيف أنّ **القرآن** يركّز على الخداع وعلى البقاء في الغفلة. فهو دومًا لا يريد للناس أن يبقوا في الغفلة ولا أن ينخدعوا، بل أن يفتحوا عيونهم. فإنّ **القرآن** مؤكّدٌ تمامًا من أنّ الناس لو فتحوا أعينهم لتحقّق ما يريد وهو حقّ. وكلامنا اليوم هو هذا. فإنّنا نقول لو أنّ عالم اليوم فتح عينه، فإنّ قرآننا هذا سوف يكون له حكومة العالم. غاية الأمر أنّ كلّ أنواع الجهل والغرور لا تسمح بذلك، ومن جانبٍ آخر فإنّ الأيدي الخائنة لا تسمح بفتح العيون.

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ﴾ فإنّنا جعلنا الحقيقة بين أيديهم، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. لقد أوضحنا لهم الأمر وجعلنا الحقّ أمامهم، ورغم هذا الوضع الذي أوقعوا أنفسهم فيه من الناحية الفكريّة أو العمليّة، فإنّهم يتذرّعون ويبرّرون ويختلقون الأعذار ويؤلّفون المبرّرات الكاذبة. ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَه﴾.

دقّقوا أيضًا، فإنّ محلّ الشاهد ومحوره في معظمه موجودٌ في هذا القسم؛ وبالتأكيد فإنّ الآيات السابقة أيضًا تدلّ على ما هو مورد النظر.

﴿إذًا لَذَهَبَ كُلُّ إله بما خَلَقَ﴾، لو أنّه كان من المقرّر وجود عددٍ من الآلهة، فإنّ كلّ إلهٍ سوف يجلب إليه مخلوقاته؛ وهذا هو الاختلاف، وهو الاختلاف الطبقيّ بين الناس. وهذا ما يعني زوال الانسجام والوحدة في الخلقة سواءٌ كانت خلقة العالم أو الإنسان. وذاك الذي يعتقد بوجود ربٌّ للنور، وربٌّ للظلمة، وربٌّ للإنسان، وربٌّ للطبقة العليا، وربٌّ للطبقة الدنيا، فإنّه في الواقع قد جعل عالم الخلقة هذا منقسمًا إلى عشرات الأقسام المنفصلة المتزايلة. أمّا وفق نظرة التوحيد، فإنّ عالم الخلقة هو قطعةٌ واحدةٌ متّصلةٌ ومنسجمةٌ. فالإنسان والحيوان والجبل والفلك والموجودات هي جميعًا متّصلةٌ ومرتبطةٌ ببعضها البعض ويوجد بينها حالٌ من الوحدة. ﴿إذًا لَذَهَبَ كُلُّ إله بما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

والقسم اللاحق هو من سورة **البقرة** الآيتان ٢١ و٢٢: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ﴾. الخطاب هنا ليس متوجّهًا إلى طبقة عُليا أو سُفلى، بل هو لكلّ الناس، وهو ليس خطابًا متوجّهًا إلى الأبيض أو الأسود، أو إلى جماعة معيّنة من البشر، بل إنّه يخاطب كلّ الإنسانيّة. وإنّنا نركّز هنا على هذه الكلمة ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ هذا الربّ الواحد ﴿الَّذي خَلَقَكُمْ وَالَّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون﴾ فهذه العبادة وتلك العبوديّة تؤدّي إلى تحقّق التقوى. فمن الأشياء التي تحقّق التقوى هذه الحالة الفضلى الملفتة - وقد شرحت سابقًا معنى التقوى - من الصيانة من المعصية التي توجد في روح الإنسان وفي قلبه هي عبوديّة الله. ولهذا، فإنّ المجتمع الذي يعيش جميع أفراده حالة العبوديّة لله ويتّخذ هذا المجتمع شكل العبوديّة لله، فإنّ التقوى تكون متوفرّةً فيه أنّى نظرت. فالتقوى تكون كثيرةً أينما حلّت ولا يكون في التقوى قحطٌ مثل عصرنا وزماننا هذا.

﴿الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِراشًا﴾، انظروا فكلّ شيءٍ هو للجميع. فبمن يتعلّق قوله ﴿جعل لكم﴾؟ إنّه يقصد جميع الناس. ﴿الأَرْضَ فِراشًا﴾

وهو بسط الأرض، ﴿وَالسَّماءَ بناءً﴾ فهي ثابتةٌ محكمةٌ، ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرِجَ به مِنَ الثَّمَرات رِزْقًا لَكُمْ﴾، سواءٌ كان من الفاكهة والثمار لكنّه ليس رزقًا لطَبَقَةٍ خاصّةٍ منكم، فيأكل الباقون منهم بعنوان الصدقة، كلا، فإنّ الرزق للجميع. وحيث كان الأمر كذلك، ﴿فَلا تَجْعَلُوا للَّه أَنْدادًا﴾ ولا تقسّموا الناس إلى جماعات وفرق بجعلكم الأنداد والمنافسينَ والأضداد للّه الواحد، ﴿فَلا تَجْعَلُوا للَّه أَنْدادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

ثمّ يأتي دور سورة **الحجرات** وهذه الآية المعروفة والتي تنتشر على الألسن كثيرًا هي الآية ١٣: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى﴾ هنا الخطاب مجدّدًا لجميع الناس، وفي الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين، صلوات اللّه وسلامه عليه، يبيّن في بيتٍ شعريّ مضمون هذه الآية:

الناس من جهة التمثال أكفّاء ... أبوهم آدم والأمّ حوّاء

فالكلّ متساوون من ناحية المنشأ وأصل الخلقة، ﴿وَجَعَلْناكُمْ شُعُوبًا وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا﴾ فكلّ هذا التشعّب ووجود القبائل هو من أجل التعارف. ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّه أَتْقاكُمْ﴾، هذا حكمٌ إسلاميٌّ قاطعٌ في مجال نفي الطَبقيّة الاجتماعيّة؛ فلا الانتماء إلى طبقةٍ محدّدةٍ أو أسرةٍ أو سلالةٍ وآل يؤدّي إلى الكرامة أو الأفضليّة. وهنا أيضًا يوجد نقطةٌ أكثر إلفاتًا وأدقّ، فأولئك الذين هم من الأتقياء والذين لهم الأفضليّة على غيرهم لا يتمتّعون بالامتيازات الحقوقيّة الإضافيّة. فليس الأمر أنّ الأتقياء يستحقّون المزيد من المال ولهم حقوقٌ أكثر على المستوى الاجتماعيّ ويتمتّعون بالمزيد من الأمور. كلّا، فليس الأمر كذلك، بل ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّه أَتْقاكُمْ﴾، أي أنّهم عند اللّه أكثر عزّة. وبالطبع، إنّ التقوى منشأ مجموعة من الآثار الاجتماعيّة إلى حدٍّ ما ولكن ليس كثيرًا. فإنّ بعض المناصب والمهمّات مشترطة بالتقوى، فقط إلى هذا الحدّ، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَليمٌ خَبيرٌ﴾.

ويوجد قسمٌ آخر وهو المتعلّق بالآية الموجودة في سورة **الإسراء** وهي الآية

٧٠: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَني آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾. لقد هيّأ الله لبني آدم وسائل السير في اليابسة وفي المياه إكرامًا لهم؛ ورزقناهم من الطيّبات. ولعلّ قوله ﴿وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يشير ضمنًا إلى وجود العلاقات بين الناس، فلو أنّهم لا يستطيعون أن ينتقلوا من نقطة إلى أخرى لما أتيحت لهم هذه الفرصة، ولما كانت لهم هذه الخصوصيّة، بل لحصل التفرّق والانفصال داخل المجتمع الإنسانيّ. ﴿وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا﴾، فمن هم هؤلاء؟ والحديث يدور حول مَن؟ ومَن أكرمَنا؟ ومَن الذين رزقناهم الطيّبات؟ ومَن الذين فضّلناهم على كثيرٍ من المخلوقات والكائنات؟ إنّهم البشر جميعًا، لا سلالة أو طبقة خاصّة.

اللهمّ بمحمّد وآل محمّد اجعل القرآن ملاذنا في الدنيا والآخرة.

بمحمّدٍ وآل محمد، اللهمّ لا تمنعنا خيرك عن طريق تعلّم القرآن.

الجلسة الثالثة عشرة: الآثار النفسيّة للتوحيد
الثلاثاء، ١٤ رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجريّ شمسيّ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّه وَالرَّسُول مِنْ بَعْد ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِيماناً وَقالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[٧٨].

(٧٨) سورة **آل عمران**، الآيتان ١٧٢ و١٧٣.

لقد أُنجِزت أبحاثٌ متعدّدة في مجال التأثيرات التي يتركها التوحيد في متن المجتمع وحول الشكل الذي يضفيه على المجتمع البشريّ والمجتمع التوحيديّ، وبالطبع يوجد أبحاثٌ أخرى في هذا المجال، نغضّ النظر عن إكمالها لأسباب عدّة.

وأهمّ هذه الجهات هي أنّ التّأثير التوحيديّ مثلًا والرؤية التوحيديّة في الأمور الماليّة للمجتمع التوحيديّ تُعدّ من المواد المهمّة لمعاهدة التوحيد. في هذا المجال، يجب ولا شكّ البحث كثيرًا ولكنّ استنتاج هذا المطلب من آيات **القرآن** هو عملٌ فيه دقّةٌ وتمعّنٌ وليس بابًا للأبحاث والجلسات العامّة. وإن كان قد ورد في **القرآن** تعبير ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الَّذي آتاكُمْ﴾[٧٩]، وهو يقصد المساكين والمحتاجين، فإنّه يبيّن الرؤية التوحيديّة في مجال المال في هذا العالم. إنّ مثل هذه الأمور موجودة لكن إذا أردنا أن نستنتج ونستنبط من مجموع الآيات المرتبطة بالبُعد الماليّ من منظار الرؤية التوحيديّة، فإنّ العمل سيكون ضمن البيئة العلميّة الخاصّة ويحتاج إلى الدقّة والتمعّن ولا يجدر أن نضعه في صفحات مصوّرة فقط وصرف النظر عنها.

البُعد الآخر للتوحيد هو أنّه لدينا أبحاثًا أكثر ضرورة في مجال الأصول الاعتقاديّة والأيديولوجيّة للإسلام؛ فما زال هناك كلامٌ في هذا المجال، ومن الضروريّ أن ننهي هذه الأبحاث مع نهاية شهر رمضان إذا أُعطينا الفرصة والعمر لكي نصل إلى حدٍّ معيّن. ومن الواضح أنّه إذا أردنا أن نتقدّم أو أن نسير على هذا المنوال ونبحث جميع الفصول والقضايا، فإنّنا لن نصل إلى الهدف المرجوّ، وهذه هي الجهة الثانية أيضًا. وفي الإجمال، كانت هذه أسبابٌ، بغضّ النظر عن الاستمرار في البحث حول الآثار الاجتماعيّة للتوحيد في هذا المجال.

واليوم، وإن كان حديثنا عن التوحيد، لكنّه بحثٌ يتناسب مع الأبحاث الأولى التي قدّمناها في مجال الإيمان وآثاره وبشائره التي قدّمها للمؤمنين.

---

(٧٩) سورة **النور**، الآية ٣٣.

فالإيمان الذي تحدّثنا عنه هناك هو تلك الحالة الاعتقاديّة المنتجة للعمل والمولّدة لتحمّل المسؤوليّة والتعهّد. وبالطبع، قلنا إنّ هذا الإيمان ينبغي أن يكون مبنيًّا على الوعي، ولا ينبغي أن يكون إيمانًا أعمى، وأن يكون مجرّدًا وعاريًا وبعيدًا عن العمل الصالح، لقد كانت هذه أبحاث قدّمناها سابقًا. والاعتقاد بالتوحيد هو إيمانٌ. هو الإيمان الموحّد الواعي، وهو إيمانٌ ينتج العمل وتحمّل المسؤوليّة. والمسؤوليّة التي يلقيها التوحيد على عاتق الموحّد هي أعظم المسؤوليّات وأكثرها ثقلًا وتأثيرًا بين جميع العقائد الإسلاميّة والدينيّة. إنّ مسؤوليّة التوحيد من جانب أيّ شخص موحّد يمكن اختصارها في الحقيقة في مسؤوليّة بناء عالم توحيديّ، فالمسؤوليّة التوحيديّة بنظر الموحّد وبالنسبة له عبارة عن الالتزام بالقضاء على جميع أنواع الشرك؛ هذه هي مسؤوليّات التوحيد.

وهنا أريد أن أذكّر بنقطةٍ أوجّهها للأصدقاء والإخوة الذين لديهم نوع إلمام باللغة العربيّة. فكلمة التوحيد هي على وزن تفعيل. ولو سألتم أيّ طالب علّم عن كلمة التوحيد ماذا تعني وما هو معناها اللغويّ، فإنّه سيقول إنّ معناها جعل الشيء واحدًا. فالتوحيد في النهاية هو من الوحدة، ومشتقٌّ من مادّة الوحدة، والوحدة هي جذره. فالتوحيد بصيغة تفعيل - كما نقول نحن طلّاب الحوزة - هو عبارة عن جعل الشيء واحدًا. فماذا يعني جعل الشيء واحدًا؟ إنّ ذلك يعني أن نجعل الآلهة المتعدّدة بصورة إله واحد، وأن نجعل المجتمع غير التوحيديّ مجتمعًا توحيديًّا، وجعل ذهن المشرك وقلبه ذهنًا وقلبًا موحّدًا. فالتوحيد وجعل الشيء واحدًا كلّه تعهّدٌ والتزام. ففيه السعي والعمل والفعل فهذا ما تستلزمه كلمة التوحيد من الأساس. وهذه نقطةٌ يؤدّي التوجّه والالتفات إليها إلى إيجاد وعيٍ خاصٍّ في الإنسان تجاه قضيّة التوحيد.

حسنٌ، الاعتقاد بالتوحيد هو إيمانٌ بهذه العظمة وهذه المسؤوليّة الثقيلة والقاطعة والمصيريّة. فإنّكم لو أخذتم أيّ واحدٍ من العقائد الإسلاميّة

الأخرى أو الدينيّة أو أيّ عقيدة اجتماعيّة غير إسلاميّة، فإنّكم لن تجدوا المسؤوليّة النابعة منها بهذه الدرجة من الثقل والعظمة. فالقضاء على الفقر في المجتمع يُعدّ على سبيل المثال مسؤوليّةً أو أنّ توزيع الثروة بصورة عادلة في أيّ مجتمع هو مسؤوليّة يمكن أن تكون موجودةً في مدرسة أو مذهب ما. والقضاء على الحروب هو مسؤوليّة يمكن أن تكون متبنّاة من قبل مذهب معيّن، ويكون هذا المذهب قد أخذ على عاتقه مثل هذه المسؤوليّة، ويكون أتباع هذا المذهب مسؤولين عن تحمّلها، حيث تنتقل إليهم بالتبع، وهذه صحيحة. لكنّ التوحيد بمعناه الصحيح والإسلاميّ، لا بمعناه الخُرافيّ المبنيّ على الكسل والبطالة. فلو أخذنا التوحيد بهذا المعنى بعين الاعتبار الذي هو عبارة عن توحيد الله وجعل الحكومة إلهيّة والمجتمع إلهيًّا والقانون إلهيّا والنظام إلهيًّا، فإنّه يشمل جميع هذه المسؤوليّات التي ذكرتها والتي يمكن أن تكون موجودةً في أيّ مذهب أو عقيدة.

هذا، بالإضافة إلى وجود مسؤوليّات أخرى. انظروا كيف أنّ مسؤوليّة التوحيد مسؤوليّة ثقيلة جدًّا. فإنّ هذا نحو إيمان ولكنّه إيمانٌ واعٍ يتلازم مع المسؤوليّة؛ وهو في مسؤوليّته أثقل من كلّ المسؤوليّات الموجودة في جميع المباني الاعتقاديّة الدينيّة وغير الدينيّة، بالإضافة إلى قاطعيّته وشموليّته وجامعيّته، هذا هو التوحيد. فإذا كان الإيمان التوحيديّ بهذا المعنى، وكان الإيمان به إيمانًا صحيحًا واقعيًّا، فمن المناسب أن نقوم بدراسته لنرى تأثير هذا الإيمان وتأثير هذه العقيدة المولّدة للعمل على مستوى النفس والروح كيف ستكون، وكيف ينبغي أن تكون. هذه قضيّةٌ مستقلّة. فلنرَ هذا الشخص الذي يصبح معتقدًا بالتوحيد، وبأنّ الله واحدٌ في جميع زوايا ونطاقات الحياة البشريّة المختلفة، مثلما يكون الله واحدًا في جميع زوايا عالم التكوين، كيف ستكون آثار اعتقاده هذا على روحه ونفسه؟

إنّ الفائدة المرجوّة من هذا البحث هي أمران: الأوّل، أنّنا نصبح أكثر اطّلاعًا على التوحيد لنفهم التوحيد ببعده التعليمي على المستوى الروحي

والنفسي. فلو أنّ شخصًا استنتج ذات يوم من التوحيد أمرًا مخدّرًا، فإنّنا سوف نقول له يا فلان إنّ تأثير التوحيد ليس ما تقول بل إنّه ما نقول نحن وهو هذا. فمعرفتنا بالتوحيد هي الفائدة الأولى.

الفائدة الثانية: أنّنا سنتعرّف على أنفسنا ونرى هل نحن موحّدون أم لا. فذاك يكون من باب معرفة أصل التوحيد في قلوبنا. فكيف أفهم أنا أنّني موحّدٌ؟ وأنّى لي أن أعرف أنّ هذا الإيمان قد أثّر ونفذ في روحي وفي أعماق وجودي؟ فعندما أعلم ماهيّة التأثيرات الروحيّة للتوحيد وكيفيّتها، وعندما أتعرّف على آثار هذا الدواء القطعيّة في الوجود، عندها سأعرف، عندما أنظر إلى نفسي، إذا ما كانت هذه التأثيرات موجودة أم لا، وسأدرك ما إذا كان هذا الدواء الذي تناولته هو أصليٌّ أو مزوّر، وإذا كان ما قُدّم لي في هذا المجال هو سليمٌ أم مقلّد. فإذا وجدت أنّ تلك الآثار المرجوّة ليست متحقّقة في نفسي، سأفهم عندها أنّ هذه العلبة من الدواء التي أعطيت لي هي علبة مزوّرة ومقلّدة ولم تكن سليمة، لأنّها لو كانت سليمةً وصحيحة لأوجدت في نفسي آثارًا مختلفة. وأنا العبد لو أردت أن أتحدّث عن مجالات الآثار الروحيّة والنفسيّة للتوحيد فإنّ البحث سيمتدّ ويطول.

ويمكن اختصار التأثير النفسيّ والروحيّ للتوحيد في عدّة جمل؛ الإنسان الموحّد ينال من الآثار التي تستقرّ في روحه من ناحية التوحيد وقلبه بحيث أنّه يصبح صاحب سعة أفق. فالموحّد بعيدٌ وآمنٌ من ضيق النظر وقصره. فالإنسان الموحّد لا يقول إنّني هُزمت في هذا الميدان أو إنّ جبهتنا في هذا المجال قد تراجعت وإنّ عملنا قد انتهى بعاقبةٍ مضرّة، فهو ليس قصير النظر إلى هذا الحدّ. إنّه يعلم أنّ الفكر التوحيديّ يتّسع في نطاقه إلى ما يوازي عمر الإنسان بل عمر البشريّة. فبالمقارنة مع عمر البشريّة، فإنّ السنوات العشر أو العشرين أو الخمسين أو المئة ليست سوى لحظة أو دقيقة لا أكثر. وببيانٍ آخر ومن زاويةٍ أخرى، فإنّ الإنسان الموحّد لا ينحصر أفق نظره في القضايا المادّيّة والاحتياجات الدنيا والحقيرة، فهو لا يتوقّف

عندها. فالإنسان الموحّد عندما ينظر في مقابل نفسه، فإنّه يرى إلى جانب الاحتياجات المادّيّة عشرات الاحتياجات بل مئات الاحتياجات من أعظم وأعزّ احتياجات الإنسان. ولا يتوقّف ذهنه وفكره وحواسّه عند الاحتياجات الدنيا والصغيرة ويحصرها بها ولا يحبس نفسه ويسجنها، مثلما يحصل للذين يعيشون المادّيّة في باطنهم، وإن كانوا بالظاهر إلهيّين ومعنويّين. الإنسان الموحّد عندما ينظر إلى المستقبل، فإنّه يراه أمامه وسيعًا بسعة لا متناهية. ومثلما ذكرت في أحد الأيّام الماضية، فإنّ الموحّد لا يرى للعالم نهايةً، وذلك لأنّه يرى الدنيا متّصلةً بالآخرة. فالدنيا والآخرة بالنسبة له وجهان لعملة واحدة، ولا يعدّ الموت حائطًا أمام الحياة ولا يفترضه نهاية الطريق، بل يعدّه نافذةً وممرًّا معبرًا إلى عالمٍ أوسع. هذه هي خواصّ التوحيد.

إنّ الإنسان غير الموحّد مهما كان مضحّيًا ومهما كان منشدًّا وتابعًا للمُثُل الشريفة والإنسانيّة، فإنّ كلّ شيء ينتهي بالنسبة له عند عتبة الموت؛ في حين أنّ الموحّد يكون الموت بالنسبة له بداية حياة أوسع ودخولًا إلى عالم أجمل وألذّ. إنّ الإنسان المادّيّ، إن كان كثير التضحية، فإنّه يكون مستعدًّا لأن يرمي نفسه في تلك المنطقة التي تُعتبر بالنسبة له عدمًا، لكنّ الإنسان الموحّد، إن كان كثير التضحية، فإنّه في الأساس مثل فراشة أو شمعة لا يُتوقّع منها سوى أن تحترق وأن تتجاوز مصالحها الشخصيّة، ولكنّه إذا لم يكن بمثل تلك الحالة من التضحية ولم يصبح كذلك، ولم يُرد أن يكون مضحّيًا إلى ذلك الحدّ، فإنّ إلقاء نفسه في تلك المنطقة التي يعتبرها المادّيّ عدمًا هو أسهل، وذلك لأنّه لا يراها عدمًا، فهناك عالمٌ آخر ومكانٌ مختلف، منطقةٌ أخرى من المناطق الواسعة للحياة الإنسانيّة، هكذا يعرفها وهكذا يعدّها.

ومن جملة التأثيرات الخاصّة بالتوحيد على مستوى نفس الموحّد هي أنّ التوحيد يجفّف جذور الخوف ويجعلها يابسةً في نفسه، وهذا الأمر مهمٌّ

جدًّا. يوجد في **القرآن** عدّة موارد سيصل بعضٌ منها إلى أسماع السادة في هذه الجلسة، وستكون مورد تدبّرهم. نجد أنّ الخطاب يتوجّه إلى المؤمنين بقوله: ﴿فَلا تَخافُوهُمْ وَخافُونِ﴾ فقوموا بتجفيف الخوف من الآخرين في قلوبكم ولا تخافوا إلّا الله، فالذي يخاف الله لن يخاف من غيره. فالإنسان الذي كان موحّدًا وكان له الاعتقاد بقدرة الله سوف يزول الخوف من نفسه. وأنا عندما أنظر وأتأمّل وأحسب الأمور، أرى أنّ الخوف والرعب يسلبان من أصحابهما الدنيا والآخرة. فالخوف من الفقر يؤدّي إلى امتناع الإنسان عن الإنفاق؛ والخوف من الابتلاء بأيّ نوع من المنغّصات والاضطرابات يؤدّي إلى أن يرتكب الإنسان الجنايات والفجائع ويوقع نفسه في الذلّ والهوان؛ والخوف من أن لا يتمكّن الإنسان أن يعيش يومين آخرين في هذا العالم وأيّة حياة هي، وكيف سيعيش. والخوف من فقدان هذه الحياة الدنيّة الفاقدة للكرامة، التي لا يُعلم إذا كان الإنسان سيبقى فيها اليومين أو الثلاثة أيام المقبلة – فلا أحد لديه سندٌ رسميّ أنّه سيعيش إلى العام الفلانيّ أو التاريخ الفلانيّ – يؤدّي إلى أن يقضي الإنسان على حياة الكثيرين ويقضي على الحياة الاجتماعيّة أو يجعلها مرّةً. والأطماع كلّها ترجع إلى الخوف، وكلّ أنواع الخوف هي جذور كلّ أنواع الهوان والخزي في حياة البشر. فأنتم لو تأمّلتم في صفحات التاريخ لتكتشفوا ما هي الأشياء التي أدّت إلى أن يكون أتباع الحقّ أقلّيّةً، وما هي الأشياء التي أدّت بالناس إلى أن لا يتّبعوا الحقّ بعد معرفته، هناك حينما لم يتحرّك الناس العارفين بالحقّ نحو الحقّ؛ وما هي الأشياء التي أدّت إلى أن يرتكب الناس تلك الجنايات العظمى؛ هناك حيث رأيتم الناس يلوّثون أيديهم بالجرائم؛ فإذا طالع الإنسان وحقّق وبحث، سيرى أنّ منشأ كلّ تلك الأمور في الغالب هو الخوف!

بعد أن ابتُليت مسيرة المجتمع الإسلاميّ بالانحراف والانحطاط، فما هو الشيء الذي أدّى إلى أن يعجز المسلمون عن الحفاظ على الإسلام الواقعيّ، وعلى تلك الهدايا والنعم التي حباهم الله بها دون استحقاق وأوصلها

إليهم؟ فالجيل الثاني أخذ كلّ شيءٍ بالمجّان، وإنّما كانت التضحيات من قبل الجيل الأوّل، فلم يكن وراء ذلك إلّا الخوف. فمن الذي لم يكن يعرف معاوية؟ أولئك الذين كانوا يحيطون بأمير المؤمنين ويعيشون في كنف تعاليمه وتربيته وخطبه، من منهم لم يكن يعرف معاوية؟ وفي الحجاز، نسأل من لم يكن يعرف معاوية بن أبي سفيان؟ ومن الذي لم يكن يعرف عبد الملك بن مروان؟ من مِن الناس لم يكن يعرف مَن هم آل بني أميّة؟ ومن هو الذي لم يجرّبهم ويختبرهم ولم يكن يفهم كلام **القرآن** وكلام النبيّ والوقائع التاريخيّة التي تدينهم؟ ومن الذي لم يتلمّس ذلك؟ الكلّ كان يعلم، لكن لم يكونوا يمتلكون سوى الخوف!

السبب الذي جعل الناس يستسلمون، والسبب الذي جعلهم يتعاونون، ويصبحون عملاء، وجعلهم يتلهّون ويعربدون في مقام العمالة، لم يكن سوى الخوف. هذا الخوف قد شمل الشرائح الدنيا والشرائح العليا من الشعب وصولًا إلى الشخصيّات المرموقة، أولئك الذين كان الناس يرجون فيهم خيرًا، أي أنّ الخوف شمل الجميع. وقد كان عبد الله بن عمر[٨٠] أنموذج المهانة وضعف النفس والتنكّر للحقّ. والتنكّر للحقّ يتلازم مع المهانة - كما قلت سابقًا - وإلّا فإنّ عبد الله بن الزبير كان في السابق متنكّرًا للحقّ أيضًا. وعندما ينظر الإنسان بوجه عبد الله بن الزبير الدميم المعادي لعليّ، فإنّه يمكن أن يتقبّل الأمر أكثر بالمقارنة بوجهٍ مثل وجه عبد الله بن عمر. فقد كان عبد الله بن عمر واحدًا من الرجال الذين لم يبايعوا أمير المؤمنين (ع) بعد أن قُتل عثمان، فلماذا لم يبايعه؟ لقد قال إنّ الأمر بالنسبة لي غير واضح. فاحتاط بعدم مبايعة عليٍّ عليه السلام. كان ذلك بالنسبة له من منتهى الاحتياط في الدين، فبحسب ما رأى وبقوله وظنّه لم يكن هناك إجماع بين المسلمين على هذه القضيّة.

---

(٨٠) عبد الله بن عمر ابن الخليفة الثاني الذي لم يشارك في غزوات النبي بسبب صغر سنّه، وكان يتظاهر بالزهد. هو من تلك الزمرة التي لم تبايع أمير المؤمنين، وعندما هجم الحجّاج المبعوث من قبل عبد الله بن مروان لإسقاط آل الزبير إلى مكّة بايعه بصورة مذلّة وقد قُتل بعد مدّة على يد الحجّاج عام ٧٣ هجريّة.

حسنٌ، فأنت إذا لم تكن مغرضًا ولم يكن في قلبك أطماعٌ وأمراضٌ ألم تسمع «أيّها الناس لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة أهله»[٨١]؟ فأنت لم تسمع هذه الجملة من أمير المؤمنين، لكن ألم يصل مضمون هذه الجملة عن النبيّ ومن **القرآن** إلى سمعك؟ ألم تكن تعلم أنّ طريق الله وطريق الحقّ والهداية لا ينبغي أن يضلّ بقلّة أو زيادة أتباعه عن الطريق الآخر، وأنّه لا ينبغي للإنسان أن يبدّل على أثر ذلك قراره وعزمه؟ ألا ينبغي أن يرى إذا كان الطريق طريق الهداية أم لا؟! فلأنّه لم ينظر إلى هذا الأصل الإسلاميّ المهمّ والمؤثّر في الحياة والذي يعني عدم النظر إلى ما يقوله الآخرون وعدم الاهتمام بالأكثريّة الساحقة الأسيرة للجهل والأغراض كيف تعمل، فلأنّه لم يكن صاحب هذا الأصل، ولم يكن يعمل به، فقد ترك أمير المؤمنين ولم يبايعه بناءً على الاحتياط.

وبعد مرور سنوات وعندما استُشهد أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وحكم معاوية لسنوات، فإنّ عبد الله بن عمر نفسه كان يعرف معاوية جيّدًا وعن قرب. فإن لم يكن معاوية معروفًا عنده في تلك الأيّام فقد عرفه على مرّ الأيّام. ثمّ جاء بعدها زمان يزيد ومرّت السنوات الثلاث المليئة بالخزي في تاريخ الإسلام، وأضحى مروان بن الحكم خليفة يزيد وهو والد عبد الملك بن مروان وقد حكم لمدّة قصيرة، ثمّ جاء عبد الملك بن مروان إلى الحكم. وفي كلّ هذه المدّة، كان عبد الله بن عمر في المدينة في قلب المسائل والقضايا وفي صلب الحوادث والوقائع التاريخيّة، فلم يكن بعيدًا عمّا يجري أو غافلًا عن الأحداث التي تجري داخل المجتمع الإسلاميّ، ولم يعد أحدٌ من الناس بالنسبة له مجهولًا، فقد عرف بني أميّة جيّدًا. حينها جاء الحجّاج بن يوسف الثقفيّ الجلّاد الجزّار، المعروف لبني أميّة من جانب عبد الملك بن مروان، لفتح مكّة عندما كانت تحت سلطة عبد الله بن الزبير. هناك قاوم عبد الله بن الزبير وواجه بقوّة قوّات عبد الملك بن مروان التي جاءت

(٨١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ١٨١.

من الشام، هناك وجدوا ضرورة إنهاء هذه الغائلة والقضاء عليها. وقد أرسلوا لذلك الحجّاج بن يوسف الذي كان الجلّاد الأقوى من بين الجميع، وهناك جاء إلى الجبال المحيطة بمكّة ووضع المنجانيق ورمى بها بيت الله الحرام وقتل بها عددًا كبيرًا من الناس، وبعدها ذبح عبد الله بن الزبير وقطع رأسه.

جلس الحجّاج بن يوسف في خيمته لكتابة رسالة تبشّر بالفتح ليوصلها إلى الشام مركز الخلافة، وكان عبد الله بن عمر من أهل مكّة وكان القرار أن يأتي الناس أفواجًا أفواجًا ليبايعوا الحجّاج بن يوسف، فلم يكن من الذين لا يعرفون الحجّاج، فالكلّ كان يعرفه. لم يكن الحجّاج معروفًا بالحُسن والدين والتقوى والخصائص الإسلاميّة، فالكلّ كان يعرفه بأنّه في منتهى الرزالة والانحطاط وأنّه مبعوث ذلك الشخص الأكثر انحطاطًا ورزالةً، لكن بما أنّه أصبح فاتحًا وأضحت السلطة بيده، ولأنّهم إذا لم يبايعوه فسيكون السيف مسلّطًا على رقابهم، فقد جاؤوا أفواجًا أفواجًا وبايعوا الحجّاح بن يوسف نتيجة الخوف. وكان عبد الله بن عمر من ضمن الآلاف الذين جاؤوا إلى خيمة الحجّاج التي نُصبت خارج المدينة. فقال: قولوا إنّ عبد الله بن عمر قد جاء، وكان يظنّ أنّهم سيحترمونه وسوف يستقبلونه بالأحضان ويحتفون به، ولم يكن يعرف أنّ السلطة من طبعها الاستخفاف وعدم الاهتمام. كان يتصوّر أنّهم سوف يرون له قدرًا لأنّه قد ساعد معاوية ذات يوم ولم يدعم آل النبيّ. لم يكن يعلم أنّ هؤلاء يأكلون من الصحن ويرمون به. فجاء وقال: إنّني عبد الله بن عمر. فقيل للحجّاج إنّ عبد الله بن عمر قد جاء؛ فقال لهم: أدخلوه؛ وعندما دخل لم يهتزّ الحجّاج له ولم يوله أيّ احترام ولم يرفع رأسه من الورقة لكي ينظر إليه ويستقبله بحفاوة. فقال: أيّها الأمير، أعطني يدك أبايعها. فمن الذي كان يقول ذلك؟ إنّه عبد الله بن عمر. ولمن؟ للحجّاج.

عبد الله بن عمر الذي لم يقل لعليّ بن أبي طالب أعطني يدك أبايعك،

واحتاط وكان احتياطه في الدين! وهنا يقول للحجّاج أعطني يدك أبايعك. فماذا قال له الحجّاج؟ لقد قال له: إنّ يدي مشغولةٌ بالكتابة فبايع قدمي، ثمّ مدّ قدمه له وقام عبد الله بن عمر بمبايعة قدم الحجّاج بن يوسف. فالإنسان المنحطّ والجبان ولأجل أن يبقى حيًّا يومين آخرين، ويا ليت هذين اليومين كانا شيئًا مهمًّا! فليس فيهما أيّ ظفر في الدنيا ولا في الآخرة، فكلّ ما فيهما هو العيش بعدّة كيلوغرامات من الطعام الحرام لا غير، حياة لا تقرّب الإنسان إلى الله بل تقرّبه إلى الشيطان، فلأجل هذين اليومين، هكذا فعل وجاء ليبايع الحجّاج وقدمه. فما هو منشأ هذا الأمر؟ إنّه يعود إلى شيءٍ واحدٍ وهو الخوف لا غير.

ولهذا، جاء في روايات أهل البيت، عليهم الصلاة والسلام، وفي هذه الأدعية المختصّة بشهر رمضان - وأنا أوصي كثيرًا بقراءة هذه الأدعية المأثورة عن الأئمّة والتوجّه إليها – ذكر هذه المطالب والقضايا الروحيّة والنفسيّة، أي ما يرتبط بروح الإنسان، وهي تركّز كثيرًا على هذه الأمور وتعتمد عليها بشكلٍ خاصّ.

في أحد هذه الأدعية الواردة عن الإمام السجّاد صلوات الله عليه - انظروا ما هي معارف الإمام السجّاد وتعاليمه - يقول: «وعمّرني ما كان عمري بذلّة في طاعتك»[٨٢]. وأنا هنا أفسّر لكم هذه الجملة لكي يلتفت أهل الدعاء إلى أهميّته والسبب الذي جعلهم يركّزون عليه كثيرًا فلا يستخفّون بقدره، ولكي لا يقرأوا هذه الأدعية دون تفكيرٍ أو توجّه، بل يلتفتوا إلى معانيه جيّدًا. وثانيًا ليعلم الرافضون للأدعية أنّهم مع أيّ شيءٍ أو ضدّ أيّ شيءٍ ينهضون. وبالطبع، نحن ليس لدينا أعداء للأدعية بهذا المعنى، بل أولئك الذين يرفضون الدعاء عمومًا فليعلموا وليفهموا ما هي الأمور المودعة في هذه الأدعية القيّمة الموجودة فيها.

«اللهمّ عمّرني ما كان عمري بِذلّةً في طاعتك»، فهو يطلب العمر والعيش

(٨٢) محمّد الريشهري، **ميزان الحكمة** (دار الحديث، الطبعة١، ١٤١٦هـ)، الجزء ٣، الصفحة ٢١١٧.

ولكنّه لا يطلبه بنحو مطلق. إنّه لا يطلب من اللّه أن يعمّره أو يعطيه عمرًا يمتدّ لمئة سنة أو مائتي سنة على نحو جُزاف؛ بل «ما كان عمري بِذلّةً في طاعتك»، فطالما أنّ عمره يُنفق في سبيل طاعة اللّه وفي طريق العبوديّة. فذلك العمر الطويل الذي يزيد من العبوديّة للّه هو ما أطلبه، العمر الذي يُنفق في السعي والعمل لا ذلك العمر المديد الجُزاف الخاوي.

«فإذا كان عمري مرتعًا للشيطان فاقبضني إليك»، وتذكّروا جيّدًا ما معنى الشيطان واستحضروه في أذهانكم، ذلك المعنى الذي ذكرناه للشيطان والقرآن ينطق به وهو القوى الموجدة للشرّ - أيّ شخص يجرّ الإنسان والإنسانيّة نحو طريق الخطأ والمعصية والفساد هو الشيطان - فأينما وجدت عمري يصبح مرتعًا للشياطين ورأيته أصبح وسيلةً يستغلّها الشياطين ورأيت عمري مجالًا وأرضيّةً لكي تستفيد منها الجبهات المخالفة والمعارضة للّه ويجعلونني بوقًا لإعلامهم وآلةً وحربةً لأفعالهم ويستغلّون جهلي وغروري وتكبّري، وأينما وجدتني قد أصبحت وسيلةً لتحقيق السيّئات، وإفشال الصالحين والصالحات، فأينما وجدتني من الناحية العمليّة عبدًا للشيطان ولم أكن أعلم، وصرت مرتعًا له، «فاقبضني إليك» فهذا العمر لا أريده؛ هذا هو الدعاء.

فأقسم عليكم لو أنّ إنسانًا كان يقول هذا الكلام بروحه وتصدر منه هذه الأقوال بمنتهى الصدق ويعيش توجّهًا قلبيًّا إلى معانيها أثناء النطق بها، فأيّة حالة في حياته ستتحقّق؟ هكذا كان أئمّة الهدى عليهم الصلاة والسلام يعلّموننا ويقولون لنا إنّ الموت أفضل بدرجات من تلك الحياة التي ستكون وسيلةً لكي يستفيد منها أعداء اللّه.

حسنٌ، فلماذا تخاف من الموت أيّها التعيس! يا عبد اللّه بن عمر! لماذا؟ حسنٌ، فليقضوا عليك، فماذا يمكن أن يفعل لك الحجّاج؟ فليأتِ الحجّاج وليقضِ على حياتك التي لا تعلم إن كنت ستعيشها لمدّة عشر دقائق بعد تلك البيعة المحفوفة بالعار أو عشر سنواتٍ أخرى، ولو عشت هذه الحياة كيف

ستكون؟ فاترك الحجّاج يقضي على حياتك. ألم ترَ عبد اللّه بن عبّاس بأيّة مذلّة وهوانٍ يرتحل عن الدنيا؟ عبد اللّه بن عبّاس الذي ترك عليًّا لوحده، والحسن، والحسين؛ لو أنّك تعتبر من مصيره يا عبد اللّه بن عمر!

لم يعش عبد اللّه بن عبّاس طويلًا، وكان قلبه مليئًا بالأسى. وكان ابنه المسمّى بعليٍّ بن عبد اللّه بن عبّاس، الذي أجلسه مقابله، يواسيه. وكان هناك بقرة أو عجل قد ذُبح، وكان كبده مريضًا ومتفتّتًا، فحمل هذا الكبد وأراه لابنه وقال له هل ترى كبد هذه البقرة أو العجل الذي ذبحناه فإنّ كبدي متفتّت أكثر منه. هكذا كانت حصيلة هذه الحياة. فما الذي حصل؟ فمدينة مكّة التي كانت ملاذ عبد اللّه بن عبّاس من غضب أمير المؤمنين ومحلّ راحته في مقابل المسؤوليّة التي ألقاها عليه أمير المؤمنين. هذه المدينة، مدينة مكّة، أضحت جهنّم عبد اللّه بن عبّاس. وأنا أقول إنّ توحيد عبد اللّه بن عبّاس لم يكن صحيحًا، وكذلك عبد اللّه بن عمر، فلو كانا موحّدين:

إنّ الموحّد لو غمسوه في الذهب أو حملوا السيف على رقبته
فلا ينبغي أن يخاف من أحدٍ أو يطمع هذا هو معنى التوحيد وفقط[٨٣]

حقًّا يقول، إنّ أهمّ آثار التوحيد النفسيّة في روح أيّ إنسان هو أن لا يخاف من أعداء هذا الطريق، طريق اللّه وطريق التكليف والطريق الذي يحدّد ويعيّن هدف وجوده. أنا لا أقول إنّه لا ينبغي أن تضعف الأعصاب وأن لا تضطرب القلوب أحيانًا. كلّا، بل أن لا يفعل الخوف فيه فعله ولا يسيطر الرعب عليه. فلا ينبغي أن يكون في وجوده خوفٌ أو رعبٌ يمنعه من سلوك هذا الطريق. فكلّ أنواع الخوف والرعب والاضطرابات التي تمنع الفضائل وتؤدّي إلى نشوء تلك الرذائل وتكاثر تلك الجنايات والفجائع، إنّ

(٨٣) للشاعر سعدي

موحد چه در پای، ریزی زرش چه شمشیر هندی نهی بر سرش
امید وهراسش نباشد ز کس همین است معنای توحید و بس

هذه الأنواع من الخوف والرعب ينبغي أن لا تكون موجودةً.

والآن وعلى كلّ حال، إنّ هذا الفصل الذي اخترناه هو على قسمين: القسم الأوّل من سورة **آل عمران** كما ذكرنا، وهو الذي فسّرناه في البداية، وبعدها تأتي عدّة آيات من سورة **الرعد**.

لقد ذكرنا من سورة **آل عمران** الآية ١٧٢: ﴿الَّذينَ اسْتَجابُوا للَّه وَالرَّسُول مِنْ بَعْد ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ للَّذينَ أَحْسَنُوا منْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظيمٌ﴾. بالطبع، إنّ مقدّمات الآية طويلة وهذا الجزء الذي اخترته أنا، ركّزت فيه على آية أو ثلاث آيات منه، ولأجل أن يكون أصل المطلب بين أيديكم فإنّني سأذكر عدّة آيات قبله، ﴿الَّذينَ اسْتَجابُوا للَّه وَالرَّسُول﴾ أولئك الذين استجابوا، فماذا تعني الاستجابة؟ أي أنّهم قبلوا دعوةَ النبيّ وهذه الدعوة الإلهيّة قبولًا فعّالًا، ولم يكن الأمر قلبيًّا بحتًا أو قوليًّا بلسانهم، بل إنّهم سلكوا طريق النبيّ واتّبعوه، ومتى؟ في أصعب الظروف وأشدّها. ومتى كان ذلك؟ عندما كانوا جرحى جرّاء القتال، ﴿منْ بَعْد ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ﴾، أي الجروح. ﴿للَّذينَ أَحْسَنُوا منْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظيمٌ﴾ وقد هيّأ الله سبحانه وتعالى لهم الأجر والثواب العظيم.

أنتم تعلمون أنّه في معركة أحد، حيث إنّ هذه الآية ترتبط بهذه المعركة، فإنّ البعض قد فرّوا وهربوا من القتال، وكان النبيّ يدعوهم، وكان البعض منهم في حالةٍ من الخوف فلم يرجعوا، والبعض الآخر رغم أنّه كان جريحًا قد رجع. وقد أُصيب أمير المؤمنين في ذلك اليوم بأكثر من سبعين جرحًا. ولا أذكر بالضبط عدد جروحه ولكنّه كان قد جُرح جراحاتٍ كثيرة وكذلك عددٌ آخر من أصحاب النبيّ، فاستجاب البعض لدعوة الرسول ولم يستجب البعض الآخر وفرّوا. هذه الآية تبيّن أجر وثواب أولئك الذين لم يفرّوا واستجابوا لدعوة الرسول ﴿الَّذينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾، التفتوا جيّدًا إلى الأبعاد الكلّيّة لهذه الآيات. فلا ينبغي أن نأسر أنفسنا في ميدان معركة أحد ولا في وقائع صدر الإسلام وفي الأحداث التي كانت أسباب نزول هذه الآيات،

فمعارف القرآن لا ينبغي أن تكون محصورةً وجامدةً. فالمهم بالنسبة لنا العبرة الموجودة في الآية، فماذا تريد هذه الآية أن تقول؟

وهذه نكتةٌ في **القرآن** لعلّني قد ذكّرت بها في مناسبات عدّة. فأحيانًا يتمّ بيان أصلٍ كلّيٍّ إسلاميّ ضمن قصّةٍ من قصّة من خلال بيان جملة ترتبط بتلك القصّة، فالتفتوا. ففي قصّة النبيّ نوح مثلًا، وهناك حينما أراد نوحٌ النبيّ أن يستقلّ السفينة وأن يركب معه أهله وعياله وكذلك أتباعه والمؤمنين والذين وقفوا إلى جانبه، وما بقي من الخلائق أضحوا عرضةً لقهر الطوفان الإلهيّ، وكان الماء يفور وكانت الأمواج تتلاطم من كلّ جانب وتغرق الناس، فإنّ أحد أبناء نوح، الذي لم يكن من المؤمنين به لم يأتِ ليركب. فهذه قصّة. إنّه يبيّن لنا قصّةً نموذجيّةً ولكنّها مليئة بالنقاط والإشارات.

فنوح النبيّ العجوز الذي ابيضّت لحيته، وبعمره المديد جدًّا، وها هو فتاه وابنه ومحبوبه الذي يقول له: تعال اركب معنا فإنّك سوف تغرق، أمّا ابنه فيقول له: كلّا، فإنّني لن أركب ولن أغرق، فإنّني سآوي إلى جبلٍ يعصمني ولا أحتاج إليك. وأثناء هذا الحوار يحول بينهما الموج، ويفقد الوالد مجال الرؤية وعندها يغرق الابن. وهنا تنتهي القصّة. ونجد أنّ قلب نوح من الناحية البشريّة ينزعج بمقدارٍ ما، فابنه قد قُضي عليه في هذه الحادثة، وهنا يتوجّه إلى ربّ العالم فيبثّه شكواه ويقول: يا ربّي لقد وعدت أن تنجي أهلي وأسرتي وإنّ ابني من أهلي وأسرتي، فليته نجا. وبعدها يأتي الخطاب من ربّ العالمين، ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ﴾، فنحن ليس لدينا ارتباطٌ بالعمل غير الصالح؛ وهنا العبرة من هذه القصّة.

بالطبع، إنّني هنا أستند إلى إحدى مفردات القصّة، بينما يوجد الكثير من الشواهد في هذه القصص وفي قصّة نوح - وهي قوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ليبيّن لنا ويعلّمنا أصلًا إسلاميًّا كلّيًّا. يقول إنّ أخوين غير منسجمين من الناحية الفكريّة هما أجنبيّان بينما إذا كان هناك أجنبيّان منسجمان فكريًّا فهما أخوان. فالأب والابن إذا لم يكونا منسجمين فكريًّا

وكان أحدهما مؤمنًا بالله والآخر كافرًا، والأوّل كان في الجبهة الإلهيّة والثاني كان في جبهة الشيطان فلا تربطهما رابطة القرابة وليسا من أسرة واحدة. فالقرابة النسبيّة والسببيّة، والقرابة التي تنشأ من علقة الدمّ، هي بنظر الإسلام في الدرجة الثانية. أمّا القرابة الفكريّة، فهي في الدرجة الأولى. انظروا جيّدًا، فهذا أحد أصول الإسلام.

وأيضًا نجد في الروايات التي نتأمّل فيها قرائن كثيرة وشواهد على هذا الأصل. وقد شاهدت روايةً عن الإمام عليه السلام. أي أنّه من الممكن أن يكون بينكم وبين أخيكم من أمّكم وأبيكم مسافةٌ بعيدةٌ بقدر المشرق والمغرب، ولكن من الممكن أن يكون لكم أخوّة مع ذاك المؤمن الذي يعيش في الطرف الآخر من العالم، ذاك الذي ينسجم معكم فكريًّا ويكون في جبهتكم مع ذاك الذي يكون إيمانه مساويًا لإيمانكم. فهذا أحد أصول الإسلام. والتفتوا في هذه التقريرات القرآنيّة إلى هذه النقاط، وانظروا ماذا تريد أن تقول لكم، وأيّ أصل أو عبرة وأيّة واقعيّة تاريخيّة يبيّنها والتي تتكرّر أحيانًا مئات المرّات في أماكن مختلفة. فتأمّلوا الآن هذه الآية.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ هؤلاء الذين يتمتّعون بأجرنا وثوابنا، ماذا قالوا؟ قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ فحذّروهم من اجتماع الخلائق عليهم وتآمرهم وتحالفهم من أجل القضاء عليكم، فخافوهم. هؤلاء هم الذين يريدون الخير والمصلحة لهذه الجماعة المؤمنة قد قالوا ذلك. المؤمن الذي تحدّثنا عن أجره وثوابه في الآية السابقة، هذا المؤمن الذي إذا قال له هؤلاء المصلحون أو حملة الخير مثل هذا الكلام، فماذا يقول لهم؟ ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ بدايةً لقد ازداد إيمانهم من هذا الكلام. ويعني أنّ إيمانهم قد ازداد بسبب مؤامرات أعداء الإيمان وهذا الأمر ملفتٌ جدًّا. ففي البداية، ازداد إيمانهم، وبعدها ماذا قالوا؟ ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. إنّهم يقولون لدينا الله فقط، وهو نعم الوكيل الذي هو أفضل مَن يمكن للإنسان أن يعتمد عليه.

﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، ماذا يعني حسبنا الله؟ قولهم حسبنا الله له عدّة معاني كلّها صحيحٌ. فحسبنا الله وهو الذي يمدّنا ويعيننا، حسبنا الله يجعل قوى الطبيعة في خدمة الطريق الذي نسلكه باتّجاه الحقّ، حسبنا الله يعني أنّنا سننال رضا الله ولو لم نفز في الدنيا. وكلّ واحد من هذه المعاني والمعاني الأخرى من قوله ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ صحيحٌ. ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾، فعندما قيل لهم ﴿فَاخْشَوْهُمْ﴾، أي خافوا من الناس ومن الأعداء ازداد إيمانهم وقالوا ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

فهؤلاء أنفسهم، أوّلًا قد نالوا مقام النعمة الإلهيّة ولن يصيبهم أيّ أذى أو سوء، وسيكونون من أهل السرور والسعادة، فكيف سيكونون من أهل السعادة والسرور، **القرآن** لم يذكر ماذا فعلوا، فلا فرق، فليكن ما يكون، سواءٌ قُتلوا في ميدان الحرب والقتال أو رجعوا سالمين أحرارًا إلى بيوتهم وقدموا إلى المدينة فكلّهم على السويّة، وسواءٌ رجعوا إلى بيوتهم ومعاشهم فاتحين ظافرين لن يصيبهم أيّ سوء لأنّ جراح ميدان الحرب ستلتئم بسرعة في المحيط الدافئ للأسرة وفي ظلّ السرور بالظفر والانتصار، ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾، ولو أنّهم صُرعوا في ميدان الحرب واستُشهدوا فهناك المزيد أيضًا، ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ لأنّهم يرجعون إلى نعمة الله؛ هذه النعمة السرمديّة الباقية والفضل الذي لا حدّ له، والفضل الذي لا يعتريه أيّ سوء، والراحة التي لا يوجد فيها أيّ شائبةٍ من الانزعاج والقلق، ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾.

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ تذكّروا هذه الآية جيّدًا واحفظوها واقرؤوها كثيرًا، وتعلّموها، ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾. هؤلاء القائلين ليسوا سوى الشيطان لأنّ الشيطان هو الذي يخوّف أتباعه ويقول

لهم لقد تآمروا عليكم وحاكوا لكم الدسائس وجمعوا الجيوش وأصبح المنافقون حلفاء كفّار قريش، وأخفوا السيوف تحت عباءاتهم وقرّروا أن يحملوا عليكم ويقتلوكم ويفعلوا بكم ما يفعلون. إنّ الذي يخوّفكم هو الشيطان، إنّما ذلكم الشيطان الذي يخوّفك من عدوّ الله، أمّا أنت فكيف ستكون؟ هل ستخاف من مقالة الشيطان؟ إنّ ذلك يرتبط بمن تكون، لأنّ الشيطان ينجح في تخويف أوليائه، فلو كنت من أوليائه ستخاف، ولكنّك إذا كنت خارج ولايته فلن تخشى شيئًا. فانظروا كيف أنّ هذه الآية بالرغم من قصرها فهي مليئةٌ بالمحتوى والمعنى، ﴿فَلا تَخافُوهُمْ وَخافُونِ﴾ وهذا الخوف يتجلّى باتّباع أوامر الله والخوف من عذابه ونقمته، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾، أولئك الذين يتحرّكون بسرعة في أودية الكفر ويتقدّمون على هذا الطريق لن يضرّوا الله شيئًا، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

سلسلة أدبيّات النهوض

١- العبادة والعبوديّة في الرؤيا والسلوك عند الإمام الخميني	حسن يحيى بدران
٢- عاشوراء وخطاب المقاومة الإسلاميّة	عليّ مهدي زيتون
٣- الشعائر الحسينيّة من المظلوميّة إلى النهوض	شفيق جرادي
٤- على ضفاف الفرات	إبراهيم أمين السيّد
٥- مجتمع المقاومة	نعيم قاسم
٦- الشيخ عبد الحميد بن باديس	إلياس جوادي
٧- الثورة الإسلاميّة في إيران: ظروف النشأة والقيم القياديّة	منوشهر محمّدي
٨- الخطاب عند السيّد حسن نصر الله	أحمد ماجد
٩- الحداثة والمقاومة	طه عبد الرحمن
١٠- الإمام ونهج الاقتدار	شفيق جرادي
١١- قيم النهوض: الحرّيّة - العدالة - الاستقلال الوطنيّ	مرتضى مطهّري
١٢- النهوض الحضاريّ في فكر الإمام موسى الصدر	غسّان فوزي طه

١٣- القدس في الوعي المقاوم	بلال حسن التل
١٤- مباني إنتاج الآخر في العقل الإسرائيليّ	حسين سلامة
١٥- الدولة والمقاومة في ظلّ الأوضاع الدوليّة الراهنة	مجموعة من الباحثين
١٦- المقاومة: جدليّة الحقّ والقوّة	مجموعة من الباحثين
١٧- الشورى ونظم الأمر	عليّ يوسف
١٨- الحرب على غزّة	مجموعة من الباحثين
١٩- المرجعيّة الدينيّة والمقاومة	عبد الساتر الموسوي
٢٠- إشكاليّة الوعي والذاكرة العربيّة	بيان نويهض الحوت
٢١- الرؤية العلميّة لدى الإمام الخامنئي	عبد الله زيعور
٢٢- الفقه السياسيّ في فكر الإمام الخامنئي (حفظه الله)	مجموعة من الباحثين
٢٣- السيادة الشعبيّة الدينيّة	مجموعة من الباحثين
٢٤- الحاكميّة: دراسة في المفهوم وتشكّله	أحمد ماجد
٢٥- صناعة الأمّة الإسلاميّة: الإمام الخامنئي (حفظه الله) وقيادة المشروع الإسلاميّ الاستنهاضيّ	عبّاس نور الدين
٢٦- حقوق الإنسان من وجهة نظر الإمام الخامنئي	منوجهر محمّدي

٢٧- الفكر السياسيّ عند الإمام الخامنئي	مجموعة من الباحثين
٢٨- المسلمون بين المواطنة الدينيّة والمواطنة السياسيّة	علـــيّ يـوســـف
٢٩- الـقدس: الموقعيّـة والتـاريـخ	مجموعة من الباحثين
٣٠- المـــرأة في فكر الإمام الخامنئي	مجموعة من الباحثين
٣١- عاشوراء: الحدث والمعنى	محمّد مهدي الآصفي
٣٢- السيـادة الشـعبيّـة الدينيّـة: إشكاليّة المفهوم	مجموعة من الباحثين
٣٣- السيادة الشعبيّة الدينيّة: معالجات في التطبيق	مجموعة من الباحثين
٣٤- الهواجـس الثقـافيّـة عند الإمام الخامنئي	إعداد مركز صهبا
٣٥- أسـاس الحـكم في الإسـلام	محسـن الآراكـي
٣٦- الإسـلام وتهمـة الإرهـاب	علـيّ يـوســف
٣٧- خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء	محمّد باقر الصدر
٣٨- وعي المقاومة وقيمها	شفيـق جـرادي
٣٩- سنن القيادة الإلهيّة في التاريخ	محسـن الآراكـي
٤٠- روح التوحيد (رفض عبوديّة غير الله)	الإمـام الخـامـنـئـي
٤١- دور القرآن في بناء نهضة الأمّة ووحدتها	مجموعة من الباحثين

٤٢- نهضة الذات	محمّد مهدي الآصفي
٤٣- الإيمان ومستلزماته	الإمـام الخـامـنـئـــي
٤٤- الإسلام في مواجهة التكفيريّة	شفيـــق جـرادي
٤٥- التوحيد وآثاره	الإمـام الخـامـنـئـــي